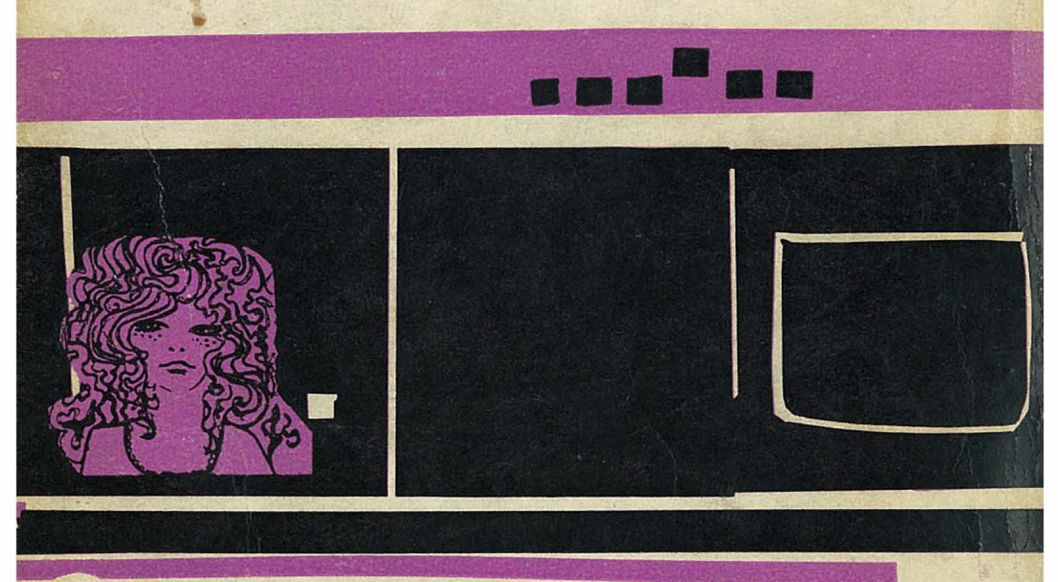
عبد العزيز هلال

امرأتان في الزحام

مجموعة قصص



المكتبة القصصية
٣

عبد العزيز هلال

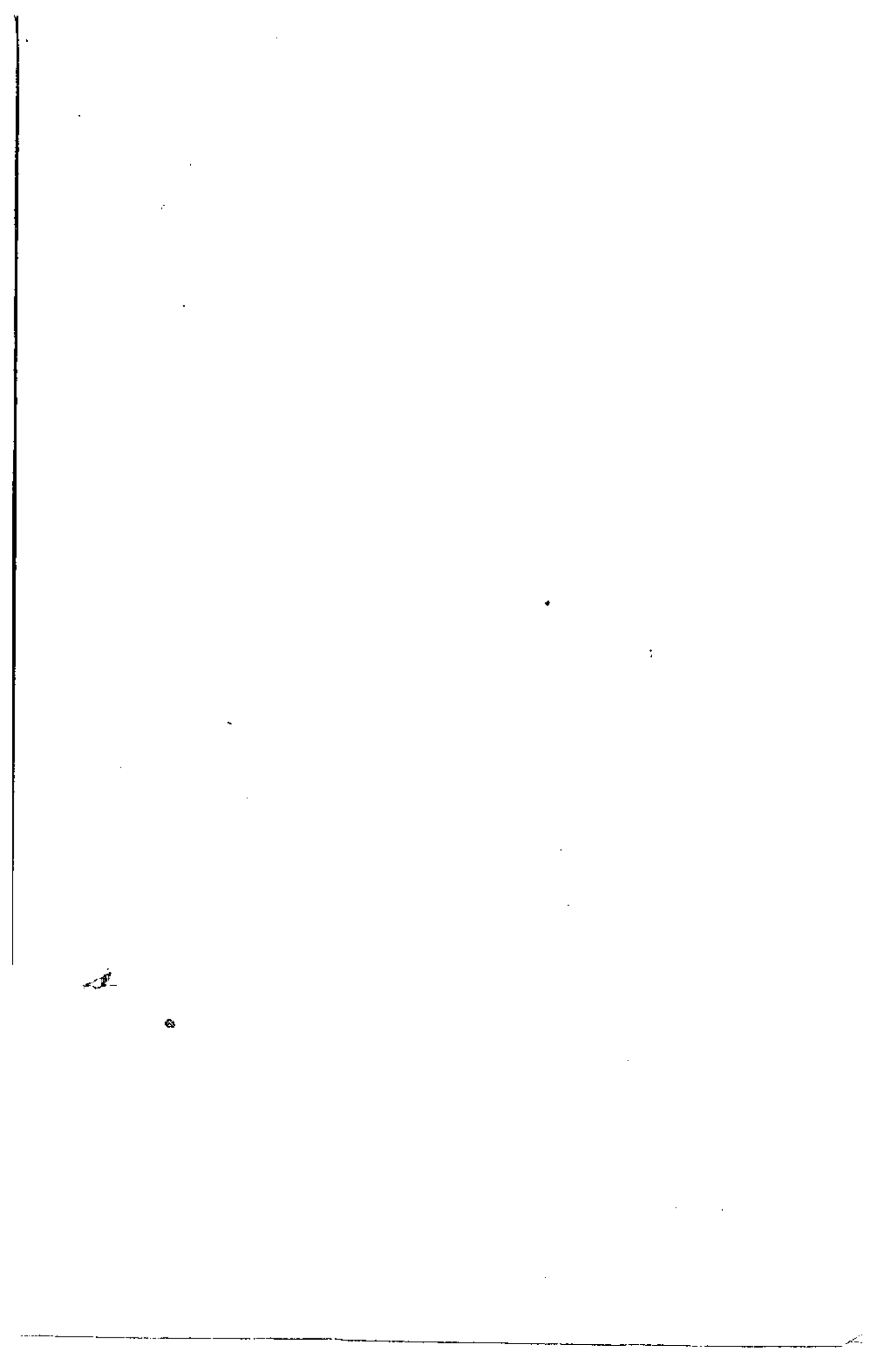


مجموعة قصص

منشورات وزارة الثقافة

دمشق

١٩٧١



امرأتان في الزحام

الساعة التاسعة عشرة ، بالتوقيت الصيفي لمدينة دمشق ، هي ساعة شارع « الصالحية » .. فمع تحددها اليومي المتجدد الى مالا نهـــاية ، يتحول الشارع الى شيء نابض بآلاف القلوب .. نهر من الأرجل مختلفة الحجوم، ومن عيون متعددة الألوان ، ووجوه مرحة ومكتئبة . واذا كانت ميزة النهر العادي وحدة الماء فيه وتماسكه فهذا ، على النقيض ، ميزته تشتت العناصر وتنافرها ، لان لكل عنصر قلباً مستقلا ، وله وحده ..

لم تكن السيدة لطفية وابنتها سهام ليخطر لها هـذا الهراء بالتأكيد . ان الصالحية شارع و كفى .. المهـــم أنه شارع يغص بالرجال . والرجل هو موضوعهما الرئيسي .

السيدة لطفية ،في الأربعين أو نحوها ، امرأةعادية .. سمينة، متواضعـة الطموح ، قليلة التفكير ، ذات زوج موظف من ذلك النوع الذي يراوح في المرتبة السادسة . أما سهام ، ابنةالتاسعةعشرة،

فهي تملك جسماً أهيف وساقين رشيقتين ، وإذا كانت لاتختلف عن أمها بسعة التفكير فهذا لايعني أنها متواضعة الى ذلك الحد الذي يتوقف عنده بصر الام القصير .. فهي تتمتع بحق تجاوزه ولو قليلا.

وبينما كانت السيدة تهتم أقصى اهتمام بعيون الرجال ، وهي تنقض على ابنتها في شراهة فتزهو وتتفاءل ، أو تنصرف عنها في شبع نادر فتنكمش وتحزن .. كانت البنت تتصنع عدم المبالاة والترفع، وان فضحت اهتمامها حركات رد فيها غير العادية وهذا الشطط الواضح في طلاء شفتيها وأصبغة وجهها وعينيها ، ذلك كله مع تعدد الألوان الصارخة في ثيابها ،يذكر المتفرجين بمهرجي السيرك . على كل حال، كانت أنثى جذابة تستهوي العيون الجائعة أن تطيل التحديق اليها ، فثمة تلقى جسداً ناضجاً يفور بيقظة الحواس واختمار العاطفة ،ويبدو في أحسن الأحوال ، ضجراً من توحده . ولكن الأم تغص بحيرة دائمة ، لانها لاتستطيع أن تعرف حقيقة كل نظرة — الى أي مدى يذهب هدفها .. لم تكن تغفل بالطبع عن مراقبة ابنتها على الدوام، بصورة خفية ممتازة .. فلكي يتاح لها أن تلاحظ العيون والابنة معاً ، تحرص في سيرها على التأخر عن عزيزتها نصف خطوة .

ما الذي يريده هؤلاء الرجال بالضبط ؟ انهم لايفعلون إلا أن يرمقوا ابنتها بنظراتهم ويستمروا في السير متنقلين الى غيرها وهكذا ، حتى الذين يظهرون اهتماماً خاصاً بها لايتجاوزون خطوات العبور .. ما الفائدة ؟

وتحسرت !

منذ نهد صدر سهام ـ المسكينة سهام ـ نهد القلق في صدر الأم ، وشرعت أيامها تثقل رأسها من جديد بذلك اللون من الانتظار الذي عانته ، قبل خطوبتها هي ، عدة سنوات ، وان كان انتظارها القديم تحرقاً الى ذراعي الرجل ، وشعوراً بالحاجة الى بيت الزوجية ، فانتظارها اليوم خوف . في أيامها كانت الفتاة ، اذا حدث ولم يأتها النصيب ، تستسلم لقدر الله ، مؤمنة بحكمته ، وتقضي العمر حتى الموت شريفة عفة ، واجدة العيش والكرامة في بيت الأب أو الأخ . أما بنات اليوم ، فان العار نتيجة مؤكدة ، محتومة ، لكل بائرة منهن . الشر مهيمن على النفوس ، في هذه الأيام ، قابع في كل زاوية يتربص لكل فتاة . الرجل تجرد عن كل خلق طيب ، لم يعد يتزوج بل هو يزني ويفضل التنقل المستهتر على الزواج والاستقرار ، حتى اذا تزوج فانه لا يثني وان وجد السبب لزوجة ثانية . قد يكون السبب أن رجال اليوم أضعف من رجال الأمس .. جائز .. ان كل شيء يسير الى ضعف ، جيلا بعد جيل .

كان زحام الناس على أشده ، والسيارات الكثيرة كثرة هائلة ، مثل الناس ، تجد صعوبة بالغة في المرور ترهق سائقيها . لم يكن مفر من تلاصق الاجسام وتدافع المناكب .. وكانت هذه الحال مبعث لذة يفقد فيها الفتيان قدرة السيطرة على عواطفهم ، يزيدهم عجزاً عري المفاتن حولهم ، فتمتد أيديهم المحمومة لتختلس

لمسة من الأجسام الرخصة الناعمة ، كيفما اتفق ، وربما تجاوز بعضها اللمس الى قرصة هنا أو لكزة هناك . وبالطبع فان السيدةلطفية ، وهي تسير متأخرة عن ابنتها ، ترى هذه اللفتات الصريحة بوضوح ، فتغض النظر ، وتمشي مثل صياد بائس يرمي بالشص الى اسماكخبيثة ذكية تتلهى بطعمه ببراعة دون أن تعلق .

سهام ليست قبيحة ، ولقد جعلت منها ربة بيت جيدة ، وحرصت على تعليمها الخياطة والتطريز بعد أن نالت نصيبهاالكافي ، كامرأة ، من العلم .. فلماذا لاتتزوج وتستتر ؟

تمر لحظات ، قد تمتد أياماً ، تنساق فيها السيدة في سيل جارف من اليأس فلا تملك غير الحسرة ، وتستسلم الى لوعة قاسية، وهي مقتنعة بأن سهاماً ولدت في يوم نحس . « مسكينة يابنتي — تظل تردد — حظك سيء ! »

على أن نظرات الرجال ، كلما خرجت بابنتها مساء الى الشوارع ، لاتلبث أن تنقذها من الاسترسال مع تيار يأسها ، فتنعم — ساعتينأوثلاث — بسعادةالأمل الباسم المنبثق من كلعين، لدرجة أن تذهب في راحتها هذه الى ان تفاضل بين الرجال وتميز بين الصالح ليكون أهلا لابنتها الغالية وبين الذي لايملك هذه الاهلية . حتى اذا مارجعت الى البيت وجلست تراقب ابنتها وهي في نشوتها تبدل ملابسها ، وترى جسدها في عريه نحيفاً رقيقاً مثل

غصن مجرد من أوراقه ، وتدرك أن أي رجل لم يتعد حدود النظر أو العبث بتلك الطرق البذيئة ، يضطرب فكرها ، ويتلاشى صفاؤها ، لتطفو من جديد عوامل اليأس والقلق فوق نفسها ، وتضطرم فيها لوعة أكالة تضنيها حد البؤس ، فتشعر ازاء عجزها برغبة في البكاء تدفع به ثقل هذا الهم الهائل . وما كانت تجهل أن سبب هذه الخيبة هو عقلية سهام .. تقول لها بصوت متهدج ، كلما رأتها عارية ، بعد رحلة البحث المعتادة :

— سهام ! ليتك استمعت نصيحتي مرة واحدة يا ابنتي !

وبلا مبالاة .. بلا مبالاة رقيقة ، مدمرة لكل أمل في التفاهم .. تقول سهام وهي تحلم :

— أنا سامعة ياماما ، أي نصح تريدين ؟

— هذا .. هذا الجسم يا ابنتي .. من يراه يحسب أن بيتنا خلو من كسرة خبز .. أي رجل لايمكن أن يغريه جسم لايملك غير العظم والجلد .

— طيب ، الجزارون في كل مكان .

— أنا لا أهزل يا ابنتي ! كل فتاة شريفة يجب أن تتزوج .

— ومن قال لك أني أرفض الزواج !

— بهذا الهيكل العظمي ؟

صرخت سهام محتدة :

ـ ماذا تريدين اذن ، أن أتحول الى برميل ؟ ان ذوق عصرك ذوق حيواني .. اليوم لم يعد له مكان .. جمال الجسم في رقته ورشاقته ، لا في كتل شحمه ولحمه .. أم أنك لاترين السمينات موضوع سخرية لكل شاب ؟

ـ بل أني أرى العكس .

ولقد ملت سهام من هذا النقاش المتكرر ، كانت تميل الى تصديق أمها في بعض الأحيان ولكن التاسعة عشرة ليست بالسن التي يمكن أن تثير أقل شك ، ليست مدعاة لليأس على كل حال ، انه ذوق العصر أيضاً وتقليده الجديد أن يتزوج الناس في سن متأخرة . . ومهما يكن فالتاسعة عشرة بداية الأنوثة والنضج ، فما بال أمها تبالغ هذه المبالغة في قلقها ! هي واثقة من نفسها ، معجبة بها حتى لتسخر من أمها وتوشك أن تحتقرها لما تبديه من ذل وصغار في اسلوب ركضها وراء الرجال ..

فقالت :

ـ طيب طيب .. أنت محقة .. ولكن السمنة ليست من طبيعتي .

ـ كيف؟ مادخل الطبيعة؟ كلي جيداً . وبعد عشرة أيام سترين النتيجة .

ـ طيب ، لابأس عليك اذن .

وابتسمت لأمها .. فقامت هذه الى الحمام حيث اطلقت دمعتين جاهدت في حبسهما فأتعبتاها .. إنها تعرف أن البنت كاذبة .. بنات اليوم عجيبات مثل هذا الزمان الملعون !

جرت هذه المناقشة للمرة الأخيرة قبل أشهر .. ومنذ ذلك اليوم فضلت السيدة كتمان لواعج نفسها ، لم تعد لاثارة موضوع جسم سهام مرة أخرى .. تأكد لديها عقم كل محاولة .. بنت عنيدة طائشة كسائر بنات جيلها ، والعياذ بالله !

* * *

وصلت المرأتان الى بوابة الصالحية ، فانعطفتا يمينـاً ، منحدرتين في شارع بور سعيد ، الرصيف مزدحم بالنـاس بصورة لاتقل اضجاراً ومضايقة عنها في الشارع السابق . وفجأة لمحت الأم يداً سريعة مدربة تمتد الى ابنتها وتنسحب مع صاحبها الى الأمام ببساطة ومرح وكأنها مافعلت شيئاً ذا بال ..

اجفلت سهام لأول وهلة وانفتل وجهها نحو الفتى عابسة ، ثم تابعت مشيتها بالطريقة نفسها ..

أما السيدة لطفية ، فقد عضت على شفتها مكفهرة الوجه ، وهي تغرق في خجل مميت . أحست بتلك الحركة كطعنة في قلبها . ووجمت وجوم غضب ساحق ، تنعدم فائدة أي تدبير معه أوضده ، حتى الدموع !

سهام معتادة على مثل هذا التصرف ، يعترف به الشبان بين الفينة والفينة بسيطرتها عليهم ، هم الاقوياء ، وهي النحيفة التي لاتملأ عيني أمها . وودت لوتسأل أمها : هل أفقدت هي الرجال عقولهم لهذه الدرجة بسمنتها التي تفاخر بها ؟ ولكنها اكتفت بقولها لها في شفقة القوي على الضعيف ، وهي مزهوة :

– لاتلقي لذلك اهتماماً ، ياماما .. انه قليل الادب ،عديم الأخلاق ، فماذا نفعل ؟

لم تفتح السيدة فمها عن حرف واحد .. ما كان بمقدورها أن تفتحه ، بل شدت شفتيها إحداهما إلى الأخرى بقوة . انها تريد تفجير هذا الغضب الهائل . بيد أنها تعرف أن الفضيحة هي النتيجة البدهية لذلك ، فكان لابد من العودة الى البيت بسرعة . . امتدت يدها تمسك بزند سهام ، فلما التفتت هذه اليها ، جاهدت لئلا يخرج من فمها سوى الكلمات اللازمة :

- لنعد .. الى البيت . .

– مازال الوقت باكراً ، أتريدين حبسنا في ذلك القبر منذ الآن ؟

ودارت السيدة بعينيها دورة مريعة على وجوه الناس حولها .. رأت العيون وهي عابرة ترمقها ، خيل اليها في كل نظرة هزؤ .. « أصبحنا مسخرة ! » رددت هذه العبارة الاسيانة في

نفسها وهي تنظر في عيني ابنتها ، فاستدارت سهام مغمغمة بخشونة ـ تود من صميم نفسها لو تنفلت مبتعدة عن أمها ، منطلقة حسبما تشتهي، في كل مكان ، متحررة من كل قيد . . أضجرتها أمها ، أضجرتها حياتها هذه ليس فيها مايجعل الحياة خليقة بالحياة ـ غمغمت بخشونة :

ـ طيب ، ولكن من شارع آخر أكثر هواء . .

كانتا اذ ذاك عند المنعطف إلى شارع شكري القوتلي . . وانطلقت سهام باتجاه هذا الشارع بخطوات من يبتغي الهرب ، وتبعتها الأم دون احتجاج . . اصبحت بكل وجودها احتجاجاً ضارعاً على كل شيء . ما الذي جعل الناس يتحولون الى هذه الصورة البشعة ؟ انها لم تشاهد في حياتها كلها سقوطاً مثل هذا ! هذا هو العصر الذي ينتهي بالقيامة ! تطلعت إلى ابنتها . . لقد بعدت عنها كثيراً . ما كان بامكانها أن تلحق بها . . هي منخذلة تماماً ، تجر نفسها وكأنها تجر بقرة نافقة ، ولم تكن تقوى على مناداتها أن تتريث أيضاً . ودت لو تهالكت على قارعة الطريق . . هكذا مقهورة تماماً !

التفتت سهام تتفقد أمها فألفتها بعيدة ، تدفع ساقيها في ضعف شديد ، فتوقفت تنتظرها . . غمر قلبها احساس بالشفقة . . احساس جامد وغاضب . .

وغضت الام بصرها الى الارض كيلا تلتقي عيناها بعيني ابنتها ..

* * *

وعندما وصلتا البيت ، بعد لأي ، في الازقة الضيقةالعتيقة من الشعلان . تقدمت البنت لتفتح الباب ، بينما وقفت الأم خلفها تتلفت حولها ، بنظرة أمل ملح عنيد لايريد الانهزام .. عسى ان ترى من اختاره النصيب يتبعها .. مثلما تفعل في نهاية كل جولة .

دمشق ١٩٦٠

حسد

للمرة الأخيرة ، وقفت السيدة بهيــة تجاه مرآة الخزانة الكبيرة ، تتأمل نفسها . وأفصح خيال بسمة مطمئنة عن رضاها... لم تزل شابة المظهر ، محتفظة بفتنة تجذب أنظار الرجال ، احداثهم وكهولهم على السواء رغم تخطيها السادسة والثلاثين بجيش من الاولاد ونكد البيت .

وكانت نهلة ، كبرى بناتها ، منبطحة على السرير ، غارقـة تماماً في كلمات كتاب ساخنة ، استعارته من صديقتهـا سميرة . لم تكن أقل جمالاً من أمها ، ولكنها أقل طولاً وأميل الى البدانة . انها تشبه أمها على كل حال .

ـ أنا خارجة .

لم تتحرك البنت . وحين بدأت الأم تهبط السلم الى باحـة الدار ، صاحت :

ـ اذا جاء أبوك وسأل عني ، فقولي له ذهبت الى الخياطة . أسمعت ؟

وقبل أن تخفت طقطقة كعبي حذائها على بلاط الدار ، قلبت نهلة الكتاب ووضعته مفتوحاً على الوسادة وانقلبت على ظهرها، وتمطت ، ثم قفزت نحو النافذة المطلة على الزقاق الصغير الضيق ، وأسقطت عينيها فوق أمها التي كانت واقفة أمام البـاب ، تتلفت حولها بصلف وهي تصد عنها عدداً من الصبية والاطفال في هيئة زرية قذرين الى حد مقرف .. يضجون صياحاً وهم يسألونها فرنكا لكل منهم . جعلت تبعدهم عنها متقززة ، محاذرة أفساد اناقتها ، وأمرت البنت الكبيرة بينهم :

ـ اسمعي يا رويدة .. ادخليهم واعطي كلا منهم قطعـة من الجبن وكسرة خبز .. قطيعة !

غير أن أصغرهم ألح لاثغاً :

ـ لا لا ، لا اريد .. ماما .. الله يخليك ، فرنكا واحداً ، اريد فرنكا .

وتشجعت طفلة فصاحت :

ـ وأنا ايضاً ، ماما ، الله يخليك .

لكنها كانت قد بدأت بالسير كطاووس كبير ، وهي تغمغم بشتيمة ضد الأب الذي خلف هذه البلاوى ، في حين تولت رويدة تنفيذ الأمر فلملمت أخوتها وادخلتهم البيت الى المطبخ .

واذ اختفت الأم في عطفة الطريق،ضحكت نهلة بغبطة، وأسرعت الى الخزانة ففتحتها وبحثت في أحد أدراج أرضيتها عن سيكارة، اشعلتها وأخذت منها نفسا شهقته بتعطش ، ثم زفرته ببطء وارتياح . وبعد أن أغلقت باب الخزانة لبثت تتمتع بالنظر الى نفسها في المرآة.

وصلت السيدة بهية الى موقف الحافلة الكهربائية ، فوقفت تنتظر ، دون ان تظهر مبالاتها الشديدة بنظرات الرجال في الشارع. وألقت بنظرة بارعة الحركة على ساعة معصمها .. كانت الساعة تشير الى السادسة والنصف ، هذا هو بالضبط موعد السينما. ومن هذا الموقف حتى الموقف الذي هبطت فيه ، كانت أعين الرجال — في الحافلة — مغروسة في جسدها تلقح أحساسها بسعادة عميقة .

استقبلها ، على باب السينما ، شاب بدين ، يطفح وجهه بالقلق قال لها بلهجة غير دمشقية :

— كدت أيأس من حضورك ، ما الذي أخرك؟

— ليس هذا من شأنك ، دعنا ندخل .

قالت ذلك بحزم ، وكبرياء ، فلم تتحرك شفتاه عن كلمة أخرى بل تبعها وهو يخرج تذكرتي الدخول من جيبه ، وغاصا في الظلام ..

ودارت نهلة حول نفسها ، منتشية بجمالها ، عدة دورات ، فحذا الفستان الواسع حذوها في يسر مشكلا مظلة .. والقت بجسمها على مقعد طويل يحاذي الحافة السفلى للنافذة، تاركة الفستان

يأخذ الوضع الذي يشتهي بدلا من أن تردعه عن فضح فخذيها ، فسمعت في الحال صفيراً مطوطاً ينطلق من النافذة المقابلة لنافذتها تماماً ، حيث رأت مصطفى توشك عيناه أن تنفصلا عن محجريها جاحظتين نحوها . ابتسمت له ، وجلست مرتفقة حافة النافذة . هتف متوسلا :

ـ لالا ، دعيني اراهما .

حركت رأسها رافضة بدلال ، وهي تبتسم ابتسامةفاتنة. لم يكن يفصل بين النافذتين سوى فراغ الزقـــاق الضيق ، وكانا يستطيعان الكلام بيسر وكأنهما في غرفة واحدة .

غاب مصطفى لحظات ، رجع بعدها الى نافذته وهو يمسك بفمه سيكارتين اشعلهما،وألقى بواحدة منهما الى نهلة ، وقعدايدخنان ويثرثران بنعومة ، ويتبادلان ضحكات رقيقة وايماءات تحمل قبلات ومداعبات سخية . على ان جلستهما لم تدم سوى دقائق قليلة ، لأن الفتى كان مضطرا للذهاب الى الجامعة من أجل درس عملي مهم،فهو قادم من الاسكندرية لدراسة الصيدلة في جامعة دمشق ، وقدرسب في العام الماضي ـ اول أعوام الدراسة ـ وعليه ان ينجح هذا العام والا أثار ريبة الاسرة هناك .

قالت له :

ـ اذهب اذن ، يا حبيبي . . يجب أن تنجح . . نجاحك يهمني أنا أيضا . هيا هيا ، لا تجعلني ازعل منك .

ـ آه يا نهله : لشد ما أحبك !
ـ وانا أكثر يا مصطفى .
ـ صحيح ؟
ـ والله . اذهب الان .
ـ أنا أسعد انسان في الدنيا . أتدرين ؟ رفاقي يحسدونني عليك .
ـ صحيح ؟

وضحكت ضحكة مرحة . ثم تبادلا قبلة تحية في الهواء . وتراجعت هي الى السرير . فتمددت فوقه ، حالمة نشوى ... « ما أكثر الذين يحبونني ! »

وانطلق الاولاد الى الطريق ، عائدين الى اللعب . . وصعدت رويدة الى غرفة النوم لترى ما تفعله نهلة . كانت رائحة الدخان تملأ جو الغرفة . . فصاحت :

ـ أظن أنك لم تتركي لي سيكارة واحدة ، أليس كذلك ؟
ـ اغربي عني ، اصابتك حمى كم أنت رقيعة !

فلطمتها رويدة على وجهها ، وتماسكت الاختان بالايدي ، ثم التحمتا في عراك عنيف ، يضج صوتاهما بالضحك والسباب . . كانتا تجدان لذة في التحام جسميهما على هذا النحو العنيف وشد الشعر والعض والتدحرج فوق السرير . وبالرغم من أن رويدة على نقيض

نهلة بنحافتها الى حد الوهن ، فانها تحتمل عنف هـــذا العراك حتى النهاية .

اخيرا تهافتت حركاتها ، ثم سكن جسداهما ، وقد تعرقا وتلونا بلون القرمز .

نزلت رويدة من فوق السرير ، لاهثة . وجرت نفسها الى الخزانة حيث أخرجت سيكارة من المخبأ الخاص ، وجلست تدخنها فوق المقعد المحاذي للنافذة .

وسألت أختها :

ـ أتريدين نفسا ؟

كانت نهلة مغمضة العينين . وصدرها يعلو ويهبط في حركة رتيبة ، واضحة .. أجابت بفتور :

ـ لا .. دوختني السيكارة التي اعطانيها مصطفى ...

ـ متى ؟

ـ وأنت في المطبخ .

ـ اولاد الكلب هؤلاء : لااحد منهم يهتم بي .

ـ مازلت صغيرة .

ـ أنا ؟

ضحكت ضحكة مفتعلة وقالت :

ـ استطيع أن أبذك ...

قاطعها صفير تسامى اليها من أسفل الشارع ، استطلعت صاحبه فإذا هو عدنان ، يقف في مدخل بيته بجوار البيت الذي يقطنه مصطفى .. فقامت عن النافذة مخلية المكان لاختها .

تبادلا ابتسامتين عريضتين .. وجمع عدنان يديه بشكل كروي وضمها الى صدره . وردت عليه نهلة بدها شفتيها ، مانحة اياه قبلة في الهواء ، فضحكت رويدة من خلفها .

كان اياد ، أكبر اشقاء نهلة ، في تلك اللحظة ، يضرب أخاه هشاما بكلتا يديه ، وهشام يصرخ باكيا . بينما كان هيثم ينقل ترابا على قطعة من التنك ، من زاوية الشارع حتى باب بيتهم ، ثم يبول عليه لتجبله أمل وطفلة أخرى من الجيران ليصنعوا منه كعكا.

صرخت نهلة من عل:

ـ ولك اياد ! ليضربك الله .. لماذا تضربه ؟

تراجع اياد عن أخيه ، وهو يقول :

ـ لانه جحش ، بدلا من أن يلعب يخرب اللعب .

وعندها نهض هشام عن الارض وجلس على عتبة الباب ، ممسكا ظهره باحدى يديه وماسحا انفه بالثانية ، باكيا ، لاعنا ابا اياد .. ضحكت نهلة قائلة :

ـ حمى تأخذك .

وضحك عدنان مأخوذا بمنظرها وهي تضحك .. واستبد به سكر ملأ شرايينه جمرا . فاشار لها ان تهبط اليه وان ليس في

البيت غيره . ولكنها حركت رأسها رافضة بذلك الدلال يزيد الجمر توهجا وتبتسم ابتسامة تنم عن سعادتها ..

في غفلة من عيون الناس المأخوذة بمشاهد الفيلم ، خلال الظلام الرقيق ، امتدت يد الرجل ثابتة هذه المرة ، وتحسست جانبا من جسد رفيقته ، وقد اشتعلت دماؤه بنار مذهلة . لم تردها السيدة بهية ، كما فعلت من قبل ... تركتها ، في تسامح يستحق التقدير ، تعبث وتجوس هنا وهناك من غير أن تتأثر ، كانت مشغولة تماما بعلك العلكة ومتابعة احداث الرواية الميلود رامية السريعة الحركة . ولكن اليد المحمومة انسحبت فجأة ، واندست في جيب سترة صاحبها لتخرج بورقة من فئة خمس وعشرين ليرة .

— قومي .
— وبقية الفيلم ؟
— سأدفع لك قيمة تذكرة لتشاهديه في وقت آخر .

وغادرا صالة العرض ، واستوقفا سيارة تكسي ...

وضع عدنان رسالة صغيرة مطوية على ابرة واحدة داخل علبة كبريت فارغة ، والقى بها من مكانه في مدخل بيته الى مدخل البيت الآخر ، فسقطت على عتبة الباب وهوت على الرصيف ، فالتقطتها رويدة وصعدت بها الى الغرفة العليا ، وبقي عدنان ينتظر الجواب مراقبا نهلة وهي تتسلم رسالته .

كانت الرسالة تتضمن عرضا موجزا : ان تعطيه فرصة لضمها الى صدره وتقبيلها قبلة واحدة مقابل خمس ليرات يقدم منها هذه الليرة كعربون .

سألتها رويدة :

ـ مارأيك ؟

ـ ليحترق أكثر .

ـ يابنت الـ ... انها خمس ليرات ! خمس ! ماذا دفع لك مصطفى ؟

ـ ياغبية ، مصطفى غريب .. قد يتزوجني ، الا تفهمين ؟

ـ ولماذا لايكون كاذبا مثل عزيز الذي كان يقيم في غرفته قبله ؟ كان هو ايضا غريبا ، وكان يردد لك دائما انه يحبك حتى العبادة .. بعد ذلك بصق في وجهك ومضى .

ـ خسئت .. أبصق في وجه ابيه وأبي احسن رجل في الدنيا .. انا نهلة .

ـ المشكلة انك تظنين كل الناس أغبياء .

ـ لاياجاهلة .. ولكنهم كلهم يعبدون جسدي .. انظري اليه ، ان أي رجل لايمكنه الا ان .. ولكن اخرسي انت لاتفهمين شيئا ، على كل حال أناأريد أن أتزوج ، لا أريد شيئاً آخر .

ـ ومن يمسكك ؟تزوجي .. ولكن ما علاقة هذه المشكلة بالخمس ليرات ؟ يجب أن نحصل عليها .. ستتيح لنا تبغا من نوع امريكي وجلسة محترمة في السينما ، وكمية من الحلوى واللبان .

ـ يالك من خبيثة ! تريدين الاستفادة من كتفي ؟

ـ لم أقل هذا .. فهويريد تقبيلك فقط ،لا الاعتلاء كتفيك .

وضحكت نهلة وقالت :

ـ انت بنت كلب .

ضحكت ريدة مبتهجة ، وسألتها :

ـ متى سنحصل على بقية المبلغ ، أريد أن أطمئن .

قالت نهلة :

ـ عندما تصبح العتمة مناسبة .

وصاحت السيدة بهيـة بقرف :

ـ لا ، ارجوك ، بدون مشروب .

فاعاد الرجل سدادة الزجاجة الى فوهتها ، وهو يحاق في رفيقته بدهشة :

ـ الا تحبين المشروب ؟

ـ مطلقا .

واردفت وهي تخلع سترتها عن ذراعين عبلاوين وبلون الحليب :

ـ زوجي ، حرمت عليه دخول البيت مع رائحة الخمر ، ولو كانت بيرة .

أقبل عليها قائلا :

ـ لو أعرف زوجك هذا .

ـ لماذا ؟

طوق جسدها بذراعين عربيدين ، وفحّ صوته :

ـ محظوظ .. لانه محظوظ .. انني احسده !

وحررت نهلة جسمها من بين ذراعي عدنان ولهثت :

ـ كفى اذن ، ها قد أعطيتك ما أردت انظر ان كان الطريق خاليا .

ولكن عدنان غمغم مستغيثاً :

ـ نهلة ارجوك ادخلي .. اكون اسعد انسان اذا اقفلنا باب هذه الغرفة علينا للابد .

ـ اعرف ياسيدي .. ولكن السعادة غالية .

ـ ادخلي هذه الغرفة ، وسأدفع لك عشر ليرات هي كل مابقي عندي .

فضحكت من سذاجته :

ـ عشر ليرات ؟ ياحرام ! لقد رفضت امي رجلا طلبني مقابل خمسة آلاف ، يملك سيارة ومئة الف ليرة .. انه من الجزيرة العربية .

ـ ولماذا رفضته ؟

ـ أرادت عشرة آلاف وشقة كاملة في احسن أحياء دمشق، فهي لاتطيق فكرة ابتعادي عنها .

قال عدنان بصدق :

ـ أنت تستأهلين أكثر يانهلة ، لو كان عندي .

ـ طيب ، خلـّني اذهب اذن ، ابتعد عن الباب .

نظر اليها متشبثاً ، ولكنه استسلم قائلا :

ـ كم احسده !

ـ من ؟

ـ ذلك الذي ستكونين من نصيبه .

فضحكت بمرح وهي تقول :

ـ اطمئن لن تكون الحاسد الوحيد .

وتفلتت من الباب ، منطلقة الى البيت ركضاً . وعلى عتبة بابه انحنت تحمل شقيقتها امل ، التي كانت تنام متعبة على الرخامة ، وصعدت بها الى اعلى ، فارقدتها على اريكة خشبية، حيث تنام الطفلة كل ليلة مع عدد من اخوتها .

وكانت رويدة تنتظر بشغف ، لتسمع من نهلة تفاصيل المغامرة .

دمشق ١٩٦٠

اللعبة

من بيتي في اقصى المدينة حتى ساحة باب الفرج ، قلب المدينة ، كنت افكر مسجوناً في دائرة ضيقة،رغم خيالي الواسع ..
كانت ثمة فكرة صغيرة ، رخيصة ، تقلق نفسي : أن أشاهد شريطاً سينمائياً جيداً يعرض في احدى الصالات ، وليس في جيبي مايكفي ثمن التذكرة . مرت كل هذه المسافة لكي اوفر اجرة ركوب الاتوبوس ، وهي فرنك ونصف الفرنك .

ولما لم اجد أحداً من اصدقائي يمكنني الاقتراض منه ، في مقهى « يونان » حيث اعتدنا الاجتماع « خطر لي أن اقصد باباً آخر لم يسبق لي أن طرقته فاتجهت اليه شاعراً بالخجل سلفاً . كان هذا الباب في الطرف الآخر من الساحة .

لم يكن في قاعة الانتظار أحد . وكان باب حجرة العمل مفتوحاً .. فالقيت بنظري داخلها مستطلعاً ، فوجدت صديقي مشغولاً باسنان امرأة محافظة ذات طابع شعبي .

جلست في القاعة انتظر .

ولكن .. هل استطيع الاقتراض من الدكتور مأمون ؟ انه رجل لطيف ، يمارس طبابة الاسنان بمهارة ، ولكنها لاتتناسب وطموحه على اية حال . ان عهد الصداقة بيننا قصير ، لم يتجاوز الشهرين .. وكنت من جهتي أجد صعوبة في رفع مايسمى بالكلفة فيما بيننا . حقاً انه يستلطفني - كما يقول - ويبدي في معاشرتي وداً حقيقياً . بيد أن فكرة الصداقة بدت لي مزعزعة بين شخصين من مستويين مختلفين .

خرجت المرأة تلهج بالشكر والتحية للطبيب .. فقمت اليه ، وقد تلاشت رغبتي في مشاهدة الرواية ... لن اقترض من الدكتور مأمون .

استقبلني ببشاشة ، وهو يجفف يديه بمنشفة بيضاء . وبادرني قائلا :

- جئت في وقتك .. اجلس .

وألقى بالمنشفة على حاملها ، بجانب المغسلة ، ثم قدم لي علبة التبغ ، وجلس قبالتي وهو يتفحصني :

- كم عمرك ؟

- ثلاثون . لماذا ؟

- انك اصغر مما يجب .. اعني لكي تبدو زوجاً حقيقياً

لامرأة في الخامسة والثلاثين ـ حسب زعمها . على ان هذا ليس بذي بال .. لقد اخترتك لهذه المهمة ، فأنت جدير بها .

ـ لا افهم ماتعني .

ـ سأشرح لك القضية . بين زبائني امرأة ...

وتردد ... فحثثته :

ـ نعم .

ـ بغي ... هي في الحقيقة امرأة طيبة تستحق العطف . وهي في ضيق الآن فلجأت الي . لكني لم استطع مساعدتها لان اسرتي محافظة ، كما تعلم . فقلت لها ان لي صديقاً في احدى الشركات وهو يستطيع مساعدتك ، لأنه غريب عن المدينة .. فرضيت .

ـ رضيت بماذا ؟

ـ دعني اتم القصة .. لها ابنة في السابعة عشرة تعيش في رعاية اسرة أبيها ، في لبنان . هي لاتعلم عن امها الا انها مقيمة في حلب بحكم زواج شرعي . اما المشكلة فهي أن البنت تريد زيارة امها واستغلال هذه الفرصة لمشاهدة معالم مدينتنا . الزيارة لن تستغرق اكثر من عشرة أيام . وهكذا ترى أنه لابد لهذه المرأة المسكينة من رجل يمثل دور الزوج ستراً للحقيقة امام ابنتها .

وسكت صاحبي ، وأخذ تبغة يدخنها . أما أنا فشعرت بالمهانة ... يريدني أن اعاشر مومساً لمدة عشرة ايام بصفة زوج ! ما الذي ساقني الى مثل هذه الصداقة ؟ واستتلى الدكتور ، وهو يغمز بعينيه :

ـ ستنال ثلاثمائة ليرة من اجل هذه المهمة . شيء مغر ، كما ترى .. انه مبلغ لا يستهان به ، إذا أضفناه الى مصاريف البيت والمعيشة ، إذ ستعيش واياها في بيت واحد ، بل وعلى سرير واحد ايضاً .. أليست فرصة جيدة لعازب مفلس ؟ مارأيك ؟

فتضاحكت ، قائلا :

ـ ابحث عن غيري يادكتور .

ـ ياصديقي ، انت انسان كبير القلب وان رفضك القيام بمهمة انسانية مثل هذه ليدهشني حقاً .. ما العذر ؟

العذر ؟ إن أي عذر لم يخطر على فكري . بيد أني اشعر بالغضب .. اشعر بفقري اكثر من أي وقت مضى ، واشعر بـه مشيناً لأول مرة في حياتي . حقاً انها فرصة ، ان كل ظروفي لتجعل من هذه المهمة فرصة ... غير أنها فرصة معيبة .

وكنت أهم بالانصراف عندما انحنى ناحيتي وخاطبني بلهجة ودية :

ـ انظر ياعبد الكريم .. قد ترى في هذه المهمة حرجاً ..

أنا معك .. فنحن العرب ذوو حساسية مرهفة ومتزمتة في موضوع كهذا .. بيد ان ذلك مجرد سخف . انه من العقبات التي تعرقل طموحنا وتحد من آفاقنا . دعك منه . انت فقير .. مامن غني في الدنيا صار غنياً وهو يؤمن بهذا الهراء الافلاطوني . انظـــر ياعبد الكريم .. اذا استطعت أن تتخلص من هذا الشعور التقليدي لحظة واحدة ستدرك كم ستكون سعيداً .

واسترسل هكذا .. يلفني بخيوط من الكلمات . ولاأدري أكانت منطقيته ، أم كان افلامي ، وفضولي ، ام كل ذلك جعلني أتساءل :

ـ هل استطيع مقابلتها أولاً ؟

فتهلل وجهه بفرح ، وهتف :

ـ طبعاً .

وسارع الى الهاتف .

* * *

بعد قليل كنا ندخل حجرتها الخاصة .. فاستقبلتنا في خضم من شذى عطر قوي حاد ودخان التبغ ورائحة المطهر ، وفي ثوب على شيء من احتشام ، لابد انها ارتدته من اجل هذه المقابلة ، بعد أن هتف لها الدكتور .

بدأت تجـــاملني بالسؤال عن صحتي وأنا أتفحصها بنظرة

صغيرة .. لاباس . انها متعبة ، ولكنها ليست كريهة خارج هذا الجو . وتنبهت الى أن الكلفة معدومة تماماً بينها وبين صديقي ،فقد خاطبته باسمه الأول مجرداً . ثم انها لاحظت :

ـ انك صغير ، كم عمرك ؟

فبادر الصديق الى القول :

ـ هذا لايهم .. حسبك انه ذو اخلاق عالية و ...

واضحكني جوابه ، فالتفت الي دهشاً بينما كانت هي تنقل عينيها بين وجهينا متفرسة باستغراب . وسألتها :

ـ أيهمك حقاً أن أكون ذا اخلاق عالية ؟

لم تخجل ، ضحكت بمرح مصطنع :

ـ لا بالطبع .. ولكنك صغير .

كان جو الحجرة مقرفاً يبعث على الغثيان .وكان خانقاً أيضاً . نهضت قائلا :

ـ حسناً ، انني صغير .

هتف الطبيب مازحاً :

ـ جربيه .

ولما لم تلق نكتته صدى ، قال بجد :

ـ اسمعي يارمزية ، الزيجات بين رجال صغار ونســـاء

كبيوات ليست غريبة على أية حال ، فلا تجعلي من هذاالامر الجانبي مشكلة ...

قاطعته وانا استدير الى الباب ، نافد الصبر :

ـ اتنصرف معي أم انك ماكث هنا ؟

وقد خرجت كلمة «هنا» من فمي تحمل الاشمئزاز، فنبرت هي بمثل لهجتي :

ـ طيب ، طيب .. اريد ان انتهي باي شكل .

* * *

بعد عدة أيام كانت الترتيبات اللازمة قد تم اعدادها . كان الدكتور مأمون هو الذي قام بها . فاستأجر شقةمفروشة ، هي بيت اخته التي ذهبت واطفالها لتقيم في بيت اسرته خلال الوقت اللازم . كانت الشقة تقع في احد ازقة « بستان كل آب » . وفي مساء اليوم التالي لاقامتنا المفتعلة فيها ، وصلت الفتاة فاستقبلتها امها - برفقة الدكتور مأمون - في المطار . كنت مشوقاً لرؤيتها مع امها في البيت .

ومن النظرة الاولى ادركت ان اميرة بعيدة الشبه عن امها... لقداخبرتني رمزية ، في الليلة السابقة ، عن زواجها الفاشل وزوجها الثري الوسيم .. فحدست ان اميرة تشبه أباها . والواقع ان لها جمالاً مذهلا، واهداباً طويلة كثيفة تسورعينيها الواسعتين السوداوين .

ومع ذلك كانت براءة واضحة تسم وجهها وتجعله يغمر الشعور بسلام عذب وسعيد . ولكن .. لن انسى ، مهما امتد عمري ، تلك النظرة الذاهلة ، الممتلئة بالاحتقار ، رمتني بها ، حينما قدمتني الام اليها بقولها : « هو ذا عمك يا اميرة » !

وإذ صافحتها مرحباً ، احسست بأن في اناملها الغضة برودة افترست مروري برآها . وفي الحال اعطتني عارضها في حركة مشحونة بالعداء ، لتنهمك مع امها في حديث يطفح باللهفة .

وبعد ان تحركتا الى الحجرة المعدة لها ، بقيت في مكاني حائراً ، يغمر قلبي امى بدلاً عن ذلك السلام . ولكني تذكرت انني مستأجر لتمثيل دور محدد وينبغي ألا أفكر الا بالاجر الذي سيدفع لي .

قبعت على احد مقاعد غرفة الجلوس ادخن التبغ . وتجمدت عند نظرة اميرة وصقيع كفها . حتى فوجئت بالصديق يدخل بعاصفة من المرح ، يفيض وجهه بشراً ، وهتف :

ـ انت هنا ؟ كيف الحال ؟ آه ! ..

كانت آهة ارتياح ..

ـ ما اجمل هذا اليوم .. اعطني تبغة ، عجل .. انه اجمل يوم في حياتي .. انه اليوم الذي سيخلد ، واعظم الفضل لك ياصديقي

العزيز ـ ولكن .. انت لست مرتاحاً ، هل تشكو من شيء ؟ ام ان نفورك من دورك لم يزل قائماً ؟

ـ لا ادري بالضبط ... يبدو انني انفر من حياتي كلها الآن .

ـ له له ! لماذا ؟ هل حدث شيء !

ـ لاشيء ..

ـ اسمع ياعبد الكريم ، كلها بضعة ايام .. يجب ان تصبر والا افسدت كل شيء . ثم انك محتاج الى المال .

ـ اعرف .. وعيشة ايام رغدة كرب امرة مزيف.

ـ الا يعجبك هذا كله ؟ من يرفض هذه النعمة ؟

ـ لماذا رفضتها انت ؟

وتنبهت هنا الى امر خطير ، فاستتليت حالا :

ـ لأن اسرتك محافظة ، اهذا هو السبب ؟

حملق بي ، بعينين انطفأت فيها اشراقة الفرحة،تابعت انا :

ـ ما الفرق بين ان يكون بيت امرتك ـ اختك ـ مسرحاً لهذه التمثيلية وبين ان تقوم انت بدور الزوج العتيد ؟ الاتتساوى النتيجتان من وجهة نظر الامرة المحافظة ؟

ـ كلا ، المفروض اننا .. لانعرف من انتم وماصفتكم .

وقمت مغمغماً :

ـ الفتاة كرهتني منذ اللحظة الاولى ! سأذهب .. لا أريد مواجهة نظراتها مرة أخرى .

فالقى بجسده أمامي ، وامسك بكتفي متوسلا :

ـ ارجوك ارجوك .. إن تراجعك يعني دمــار رمزية واميرة معاً .

وشرعت شكوكي تتوضح اكثر فاكثر ازاء حماسته . واذ ذاك قلت له :

ـ طيب ، تعال معي .

ـ الى أين ؟

ـ الى اقرب مكان يمكننا فيه إعادة النظر بهذه اللعبة .

وانطلقت خارجاً .

وفي حانة قريبة ، جلسنا الى مائدة منعزلة ، صامتين ، وانا اتفرس في وجهه الذي بدا لي جديداً ، وكأنني اتعرف اليه لأول مرة . وكان مضطرباً مثل عذراء ساذجة تتعرض للتجربة الكبرى في حياتها .

عندما احضر النادل المشروب ، توليت ملء القدحين غير عابيء باعتراضه :

ـ ارجوك ، انا لا اشرب ، انت تعرف اسرتي المحافظة ، سيشمون رائحة العرق و ...

قاطعته بعصبية :

– دعني من اسرتك . « اسرتي اسرتي » .. كف عن هذا أخيراً . ماذا تظن ؟ أهي أشرف من اسرتي أنا ؟

نطقت بذلك بقسوة، فاتسعت حدقتاه وفغر فاه مدهوشاً .. ثم انغلق فمه وضاقت عيناه غضباً . فلفظت في وجهه كلمة لامبالاة قذرة ، وقلت :

– دعنا نشرب الآن بصمت ..

ثم أردفت :

– أشعر بأني غرقت في شيء ما ، لا أستطيع وصفه . قد يكون مرحاضا .. لا أدري . أ كان يجب ان تشركني أنا في عمليتك القذرة ؟ هو ذا السؤال الذي احتاج لان توضحه لي .

وبدا مصعوقاً . قلت له :

– صارحني .. انني مستعد الآن ، ولآخر مرة، لسماعك .

– لا أفهم إلام ترمي .

– اسمع يا دكتور مأمون .. لست غبياً كما تتصور .. أنا أعرف أن أميرة ورثت عن ابيها مالاً وفيراً ، ثروة كبيرة تتألف من نقود في المصرف ، واسهم في الشركات ومزرعة زاهرة ، وعقارات.. ثروة كبيرة .

– أنا لا أعرف من ذلك كله شيئاً . ثم ما الذي يعنيه هذا ؟

فضحكت مسترسلا :

ـ طبعاً أنت تعجب وتتساءل عن مصدر هذهالمعلومات .. حسناً ، سأقول لك . لقد حدثتني رمزية ليلة امس ، ليلتنا الأولى معاً ، عن حياتها وزواجها وابنتها وموت الزوج ـ أب اميرة .وزل لسانها . هذا واضح الآن .

كان مأمون يحاول التهرب من نظراتي وكان مصعوقاًبالفعل. ولكي يقاوم انهياره ، تجرع النصف الباقي من كأسه دفعة واحدة ، وسكب لنفسه ملء كأس اخرى جرع منها جرعة كبيرة ، ثم أشعل تبغة من علبتي الفاخرة .. نفث الدخان ، وحاول عبثاً تثبيت عينيه على وجهي ، في محاولة للوصول الى ادراك مدى ثقتي فيما قلت. فوفرت عليه جهد المحاولة :

ـ اذا كنت تريدني أن استمر في تمثيل دوري «الانساني» فانني ، بصراحة ، اشترط أن آخذ ما استحق .

وتنفس بارتياح ، ولكن في غيظ أيضاً :

ـ فهمت الآن . كنت أحسبك لاتقيم وزناً للمادة ، وانه حسبك أن تساعد صديقك لتشعر .. على كل ، كم تريد ؟

ـ يجب أن أعرف الخطة بالتفصيل لاستطيع تقدير قيمتي فيها ، وبالتالي مبلغ ما استحقه .

ـ ليس ثمة خطة ، صدقني .. لماذا تسيء النظر الى الامور؟ أليس شيئاً طبيعياً أن يتزوج الانسان ؟

ـ بالتأكيد ، يادكتور ! ليكمل دينه .. وأنت في الواقع لاينقصك إلا هذا : الدين ! قل إذن .. كيف ؟ أعني ما هي الخطة؟

ـ اذا كنت تصر على وصف سعيي البريء الزواج خطة ، فهي هكذا : سأحاول السيطرة على الفتاة ماوسعني وبمساعدة امها التي ستستعمل تأثيرها الخاص .

ـ طبعاً ، ليس ذلك من أجل عيني اميرة ، ولن يكون في مصلحتها ، بكل تأكيد ، أن يكون مثلك زوجها .. كما لم يكن أبداً من مصلحتها أن تكون رمزية امها ..

ـ والآن، انت تصر أيضاً على قلب الصداقة بيننا الى معاملة تجارية ، فلك ما تريد ... كم ؟

قلت ، وأنا انهض :

ـ لا أريد شيئاً .

وتحركت باتجاه الباب :

ـ ادفع فقط ثمن العرق .

لم أكن أتصور أن يكون في مثل هذه النذالة !

لفحت وجهي نسمات باردة . تلفت الى اتجاهي الشارع . وقبل أن أترك باب الحانة لاحظت كومة من القمامة بجانبه ،فبصقت فوقها .. واندفعت الى البيت ملتهب الرأس ، يدوم السخط في نفسي كعاصفة عاتية . سأصارح اميرة بكل شيء . حقير هـــذا المأمون ، حقير ، ويريدني الخوض في حقارته حتى اذني !

وإذ استقبلتني اميرة بتلك النظرة نفسها ، ممتلئة بالاحتقار ، أو الكراهية لا أدري .. تلاشت ثورتي مرة واحدة ، واحسست ببرودة قاسية تجرف لهيب الحمرة والسخط معاً . لم يبق سوى القرف والمرارة . ثم تساءلت وسط احساس ساحق بان الدنيا كلها تسخر مني : « أكنت سخيفاً حقاً ؟ أفي القضية كلها ما يستحق الغضب ؟ أليس كل ما يجري طبيعيـــاً ؟ أحقاً انني احب تعقيد الامور ؟ أحق هذا ؟ »

ومع ذلك لم أشعر بالراحة . فقد كنت أرى ، بالرغم مني ، انني اشارك في قصة قذرة .

ولكني ، في الوقت نفسه ، كنت أدرك أن مصارحة اميرة لن تعني إلا تحطيمها . ولم اجد في مكنتي أن افعل سوى امر واحد .. قلت لها :

ـ انتدبتني الشركة إلى أحد فروعها في مدينة اخرى وأنا مضطر للسفر في الحال .

وبالرغم من معارضة رمزية ، حملت حقيبتي ، وعدت الى بيتي الموحش ، وأنا أظن اني خرجت من حلم مزعج .

دمشق ١٩٦٢

ثلاثة فرنكات

وضعوا أمتعتهم عند أصل شجرة السفرجل الوحيدة ، وهتف طليعتهم :

ـ الله ! هو ذا جمال كامل .. خضرة ، وماء .. ووجهان حسنان بدلاً من واحد !

منتهياً بنظره المبهور الى السيدتين وهو يلفظ عبارته الأخيرة ثم رجع يتأمل المكان بنظرة أكثر فضولا ... انه أجمل زاوية مظللة بأشجار التين الضخمة من جانبين ، تنفتح على حقول الخضروات والبقول ، وهي تحاذي النهر الصغير المتعرج ، الذي ينبع من قرية « رأس العين » ويصب في البحيرة ، على بعد مئة متر من هذا المكان .

تنفست السيدتان الصعداء ، بعد أن تخلصتا من حمليهما ، وراحتا تجيلان البصر حولهما دون تأثر ، حتى التقت عينا سنيه

بالباذنجان المتدلي من نبتاته بغزارة تغري بالمبادرة مثل مسألةجاهزة الحل ، فهتفت بصوت ذي غنة ، يشبه صوت يهودية :

ـ يا الله ! هذا باذنجان جاهز للقطاف !

وقد لمعت عيناها بفرحة انتصار وهي تلتفت الى زوجها وصفي ، الذي قال :

ـ نعم ، وجدت بغيتك .

ولكن سنية تألقت مثل مصباح حظي بمزيد من الشحنة الكهربائية ، فبدت أروع حسنا ، بجسدها الطويل المكتنز ، شديد الاثارة ، ووجهها الذي يذكر وصفي دائماً بلوحات فناني ايطاليا في عصر النهضة . وارتفع صوت السيدة الأخرى ، ماجده ، ينم عن نشوة :

ـ بل انظري الى التين ، فوقك .. كم يبدو لذيذا !

قال زوجها هشام في غير ارتياح :

ـ هذا هو كل مايثير اهتمامك واهتمام سنية .

وفي الحقيقة كانت ماجدة تشبه سنية الى حد بعيد فيما وراء ملامحها . ولعل هذا هو أساس هذه الصداقة المتينة التي حافظتا عليها بحرص مدة طويلة من الزمن قبل الزواج وبعده ، رغم فارق السن بينهما . وكانت ماجدة نحيفة،سمراء ، يظهر فقر الدم جليا في وجهها الذي يجمع بين أصلين مختلفين : من عرب المغرب العربي ومن

الاتراك ، في صورة دمشقية جديدة ، وكل هـــذا يناقض صورة سنيه .

بدأ الجميع بتهيئة وسائل الراحة ، قبل أن يجلسوا . وفي هذا الحين صرخت سنيه بصوت حاد مذعور :

– فوزي ، ارجع عن الماء .

فلم يطعها الطفل ، ابن الرابعة ، الذي يبدو نسخة مطابقة لأمه ، بل ظل يمارس القاء الحجر الى الماء في حمية تكشف عن حيوية غريبة . غمغمت متشكية :

– وصفي لاينتبه الى ابنـــه ، مهارته محصورة بانجاب المصائب لي .

واذ انحنت – بعد ذلك – على احدى الحقيبتين تفتحها ، ارتفع الفستان القصير عن فخـذين بلون الحليب . . لكن الهواء الخبيث لم يقنع بذلك ، فاهتبل الفرصة ليرفع ذيل الفستان بقـدر ما اسعفته قوته الضعيفة . وفي الحال بـــدا هشام عصبياً وهو يرى زوجته تراقبه ، وجعل يتلفت حوله . شاهد ثلاثة من صبية القرية يقفون بجانب جذع شجرة ، على بعد خطوات ، يحدقون اليهم بأعين وسع حدقاتها فضول وقلق . استدار نحوهم يدرسهم . عندئذ رآهم يذعرون ويتأهبون للهرب ، وقد تركزت نظراتهم ، التي ازدادت قلقاً ، على وجهه . ابتسم لهم حتى اطمأنوا اليه ، ثم اقترب منهم ، مرحباً بهم ، محاولاً تقليد لهجتهم الحورانية الريفية ، وسألهم :

ـ ما أسماؤكم ؟

تبادل الثلاثة نظرات تشاور . قال أكبرهم :

ـ أنا اسمي علي .

ربت السيد الدمشقي على كتف الصغير قائلا :

ـ وأنت ؟

فطأطأ رأسه ، مخفياً عينيه في كثة من الاعشاب تشارك الشجرة منبتها . نبر الاوسط ، نبرة تتردد بين القوة وعدم الثقة :

ـ اسمه عبد الكريم . أنا اسمي منصور .

ـ عظيم ! انت منصور فعلا . أنا أحب الشجعان يامنصور. قل لي : كم عمرك ؟

وأحس منصور بان الرجل الغريب غدر به . عمري ؟ هذه أحجية . ونظر الى أخيه الأكبر . ثم حول عينيه الى وجهالسيد.. وجه محبب ، يمكنه القول ، يبتسم ابتسامة مؤنسة ، خالية من اي مكر . حسنا . حتى في هذه الحالة ، لا أعرف الجواب . قال السيد :

ـ دعني .. دعوني أخمن أعماركم جميعاً ... علي في العاشرة وأنت في الثامنة ، وعبد الكريم في السادسة . هل حزرت ؟

لم يجبه أحد . كانوا يتمتعون بلذة من نوع رفيع ، فهذا سيد من دمشق يتحدث اليهم بمودة وتواضع . قال لهم :

- طيب ، أخبروني الان ...

قاطعه صوت ماجدة :

- هشام ! ماذا تفعل هناك ، مع تلك الأشياء القذرة ، بدل أن تقوم بعمل مفيد ؟ أم تظن أننا يجب ان نفعل كل شيء بينما أنت تلهو ؟

والتفتت الى رفيقتها ، متابعة دون توقف :

- يا أختي ، لن أرى رجلا في مثل برودته !

وهمت سنية بالقول : وي ! لو عرفت وصفي ...ولكنها أمسكت ، خوفاً من إغضابه في هذه اللحظات وهو يقطف أنضج التينات من الاغصان المتدلية فوقهم ويلقمها لابنه وللسيدتين . . وكانت سنيه تجد لذة التين الناضج شيئاً لا يعوض .

تحول هشام عن الاطفال الى رفاقه يتأملهم . . . تحقق انسجام كامل هناك ، بفضل هذه التينات الشهية . ولكنه لم يفكر بالانضمام اليهم . هذا الشعور بالحياد لم يحدث في نفسه سوى تلك الحكة الصغيرة التي تشبه التآكل . وهو عندما يخطر له أنهمارافقهم وتعنّى الرحلة الا ليمتع نفسه فان ابتسامة خبيثة ، ماكرة ، ترف على صرامة وجهه تسخر منه وتخدع الاخرين ، وخاصة زوجته . ما الذي لديه ليفعله اذن ؟ انها لم تقصد الا إبعاده عن « تلك الأشياء القذرة» . حسناً ، لديه على الاقل سيكارة يشعلها ويدخنها ،

ليس ما هو أكثر فائدة من هـذا العمل الان . واسند ظهره الى شجرة ومد ساقيه نحو الماء، وراقب سُميكات تتحرك ببطء أو تجمد لحظات طويلة .

وفجأة أقلع وصفي عن عمله . سرى اليه الملل من هـذه الحركات بين الاغصان والافواه . قال :

ـ أظن هذا يكفي .

والتحق بهشام . ساوره حسد لجوج ، وقد فكر : ان هذا الرجل يعرف كيف يسلك مع النساء . وسحقه احساس عابر بفداحة ما وصل اليه من ضعف حيال النساء، حيال فخذي سنيه البيضاوين الممتلئين بصورة خاصة . بينما كانت هي تزداد امتلاء وبياضاً ، بل توردا ، حتى أوشكت ان تكون بدينة ، كان هو ، على النقيض ، ينحف ويشحب .

جلس مثل جلسة الاخر ، وقال :

ـ والله ماقصرت . فعلت أحسن مايفعله الواحد .

كانت أغنية قصيرة المقاطع ، مكثفة الايقاع الى درجة الاختزال ، يبوح بها الماء الرقراق تملأ أذني هشام . لم يكن ينتظر أكثر من هذا في الحقيقة .

لكن كلمات وصفي نسفت كل شيء دفعة واحدة . . لشدة مابدت له غبية وعامية . قال له بامتعاض :

ـ اذا أردت الحق ليس هذا هو الأحسن . انه الأسوأ .

ـ كيف ؟ انهن لا يسببن الا المتاعب ووجع الرأس ، بقلة تفكيرهن هذه ، الافضل هو الابتعاد عنهن .

على ان هشاماً قال له :

ـ أتذهب الى البحيرة ؟ أريد أن أسبح .

وكانت ماجدة تقول :

ـ أترين ؟ بدآ بالتآمر .

فقال وصفي :

ـ لاياسيدتي ، اطمئني ، نريد الذهاب الى البحيرة .

قالت سنيه :

ـ اذن خذ ابنك معك .

في الوقت نفسه قالت ماجدة :

ـ ماذا ستفعلان هناك ؟

انطلق هشام يغادر المكان دون اكتراث ، فتبعه وصفي متردداً ، تلاحقه صرخات زوجته ، صرخات خالية من أي مبرر ، وهي بالاضافة غير مبالية رغم مايبدو عليهـــا من نزق . مجرد صرخات مبتذلة . وقذف الطفل بنفسه أرضاً ، على ظهره ، كأن قوة خفية جبارة قد فعلت هذا عمداً ، واصطنع ولولة وبكاءمالعين وهو يرفس التربة بقدميه . قالت سنية :

ـ هؤلاء هم الرجال ! لن تجدي أمكر منهم .

قالت ماجدة وهي تضحك بنعومة ، ففي ذلك تسلية على كل حال :

ـ خاصة هشام ! انت لايمكنك التصور كم هو ماكر ! اتحسبينه حقاً ينشغل بالاشجار والبحيرات وغيرها مما يسميه « الجمال » ؟

ـ على كل حال ثمة فرق بين زوجك وزوجي . هشام رجل رصين ، وهدوؤه يعطي الفرصة الدائمة للتفاهم معه .

قاطعتها :

ـ لا .. هذا وهم يسيطر على كل من لايعرفه جيداً . انه ذكي يعرف كيف يخدع الناس عما في داخله . هذه ميزته.

ـ لوعشت مع وصفي بضعة أيام ..

ولكن ماجدة استمرت قائلة :

ـ الآن مثلاً .. أتظنينه ذهب ليشاهد البحيرة أو ليسبح فعلاً ؟ لا ، أراهنك على انه ذهب يبحث عن النساء في المقصف القائم على شاطىء البحيرة . لاحظيه كلما مرت امرأة ...

جعلت الحماسة تلهب الكلمات في حلق ماجدة فلم تعد تستطيع ابقاءها هناك ، راحت تبصقها تباعاً ، وهي تستبدلها بحبات الفستق والقضامة والبزر الاسود ، وكانت راحة عميقة

تتغلغل في خلايا جسدها ومخها الآن ، رغم لهجتها الباكية التي لم تكن ضرورية في الحقيقة ، غير ان كلاماً مثل هذا - أليس هو شكوى ؟ حسناً .. كلام مثله يجب ان يكون في لهجة مؤسية .

واستسلمت سنيه للراحة نفسها ، وللموالح نفسها أيضاً . وكانت الأشياء جميعاً تبتعد الآن عن هذا الركن الصغير من العالم، مساحة البساط الذي تسترخيان فوقه ، حتى اصبح من الصعب تماماً القول بأنها هنا ، في نهاية رحلة ساعتين - من دمشق - بسيارة تكسي .

على أنها ، رغم ذلك ، امرأتان وديعتان ، جميلتان ، لطيفتان كما ينبغي لامرأتين بورجوازيتي التفكير ان تكونا .

وراح فوزي ينتزع الديدان من طين الشاطىء ويلقيها الى السمك ، ولم يكن ثمة من يراقبه الآن ، سوى هؤلاء الصبية الثلاثة الذين لم يثيروا في نفسه الا الكبرياء النابعة من احساس ملموس بأنهم من عالم حقير أدنى .. فما عليه اذن الا أن يبرهن لهم - بالمزيد من الحركة - على تميزه . وكان الصبية يتفرجون عليه ، لم يكونوا يريدون أكثر من أن يتفرجوا على هذه الكائنات الغريبة ، التي يحسون بأنهم لايستطيعون التعاطف معها ، رغم رغبتهم في هذا التعاطف ، رغبة ليست ملحة ولا تحمل طابعاً معيناً ،

مجرد رغبة ، رغبة طبيعية تصدر عن الذات .

صرخت سنية بأعلى صوتها ، كمن فوجئت بوحش رهيب :

ـ فوزي !

وقفزت نحوه . والتفتت ماجدة مذعورة . كان الطفل مغروزاً في الطين النتن على حافة الماء حتى منتصف ساقيه . خلصته امه وهي تغمغم بدعائين أو ثلاثة ، تكررها مرات ومرات كأنها فقدت القدرة على كل كلام آخر ، ولم يكن الصمت ممكناً بطبيعة الحال :

ـ يبعث لك الحمى ، الهي يخلصني منك يافوزي ، قطيعه تقطع الاولاد وتقطع هذه العيشة .

وضحكت ماجده ، وهي تحس بالجنين يتحرك حركة احتجاج خفيفةداخل بطنها . وفي هذهاللحظة تنبهت الى ان الفلاحين الصغار الثلاثة لايزالون هنا . وكان هؤلاء يراقبون المشهد ، وقد أثارهم للغاية ،بصمتوسكون، وان لاحت بسمه غامضة ،صارمة، على ثغر منصور . لاحظتهم ماجده بتنبه . انهم في مكانهم ذاته ، وقوف لايتحركون ،وكأنهم مثبتونهناك بقوةساحرة . وأحست بأنها تتزعزع ، وتشارف على مفارقة الشعور بالطمأنينة . يالهم من قرود ثلاثة تطورت توا الى مرحلة الانسان ! لمعت هذه الخاطرة في

ـ هؤلاء الفلاحون يثيرون القرف .

وسري عن ماجده . انصبت كلمات رفيقتها هذه في أذنيها كجرعة ماء بارد في حلق ظمآن . منذ لحظات قليلة كانت تفكر بهذه الحماقة التي حملتهم من دمشق الى هذا المكان .. اليست حماقة أن تترك مسرات دمشق في مقاهيها الأنيقة وسينماتها العربية لتأتي الى هنا وتتمدد في هذه الزاوية الهادئة ، المنفية ، من العالم ؟ أهذه حياة ، بدون صخب ولا ... والانكر من هذا أن السيد هشام ، هذا الرجل العجيب الذي عجزت عن فهمه ، لم يرض بالقعود في المقصف ، قال انه لم يتعن هذا العناء ويقم برحلة طويلة ليمارس الشيء نفسه : « اناما ركضت الا من أجل ان اجد شيئا جديدا ، من أجل تغيير الجو . » كلام لايقل غرابة عن صاحبه ! ولكن انظري اليه الآن ، ما ان جلسنا هنا حتى هرع الى المقصف وهو يتظاهر بالا أدرى . وقالت لرفيقتها :

ـ ويلي ! لوقدر لي العيش بينهم ثلاثة أيام لأصبت بالجنون ، فكيف ثلاثة أشهر كما فعلت ابنة عمي نوال ؟ تدرين ؟ يقال ان هذه المنطقة مملوءة بالعقارب والافاعي. وهذا عدا الفئران والجرذان وما لا أدري . أنا اموت رعبا ان رأيت ـ مجرد رؤية ـ فأرا أو جرذا ، فما بالك بأفعى !

وهم منصور بإخبارها عما في النهر من حيات كبيرة ـ عالج الفكرة بصعوبة ... هل يخبرها أم لا ؟ كيف يخبرها ؟ أيقول

هكذا ...؟ ولكن لماذا يخبرها ؟ اذ ذاك رأى السيدين مقبلين من صوب البحيرة .

اعتدلت ماجده جالسة ، وهي تبادرهما بالسؤال :

ـ ها ؟ أيوجد شيء « جميل » هناك ؟

ابتسم هشام ـ نعم رجع معتدل المزاج ـ قائلا بلهجة مسرحية :

ـ بالطبع ياعزيزتي ، هناك أكثر من شيء واحد جميل .

قالت تمتحنه أكثر بما هي مكذبة :

ـ لايلوح عليك .

ولكن سنيه قطعت عليها الطريق عندما نبرت بانفعال :

ـ قلت لك خذه معك ، والله تكاد أن تجنني انت وابنك ، لقد غرز نفسه في الوحل حتى رأسه .

كان صوتها يغرغر مثل صوت أوزة . لاحظ وصفي بانزعاج :

ـ المنديل منحسر عن شعرك ، ارفعيه وثبتيه جيدا .

فبربرت متذمرة ، تشتم المنديل وهي ترفعه وتحكم ربطه تحت ذقنها ، وكان هشام قد لاحظ عن غير قصد انحسار الثوب عن فخذيها الزاهيين ، كما كان الآن في وقفته ، وهي جالسة ، يستطيع رؤية ثدييها الكبيرين بأكملها . وفكر في شيء من برود : منظر

آمر يصيب الرجل بالدوار ويبعث فيه حمى من غير ان يخطر له أبداً أن مثل هذا الحسن ، هذا الجسد المذهل بالأحرى ، لايتعدى أن يكون تمثالاً من القطن الأبيض متقن الصنع ، في أحسن حال ! وكان يزعجه أنه ـ برغم هذا الإدراك ـ يظل منجذبا إليها على نحوما، تذهله مفاتنها !

وتساءل وصفي متضاحكا :

ـ مالك تبوبرين مثل المجانين .

قالت وهي تكز على الحروف ، تعضها :

ـ أقول .. هذا شيء لايفوتك : « المنديل منحسر عن شعرك » !

والتفتت الى الآخرين :

ـ أترون ! احدثه عن ابنه فلا يلتفت الا للمنديل . إننا في العصر الحجري ، مانزال .

علق هشام ، وهو يطوح بشحف بازلتي فوق وجه الماء :

ـ في العصر الحجري ، ياسيدتي ، كان الناس عراة .. عراة تماماً .

ضحكوا جميعاً ـ ماعداه ـ

وقالت ماجدة :

ـ هكذا ، خلّ روحك خفيفة ، يسلم لي هذا الفم عندما يجود بغير العبوس .

وقال وصفي :

ـ اسمعي وتعلمي . هكذا تخاطب الزوجة زوجها .

ـ سأخاطبك هكذا عندما تستأهل هذا .

ـ اعلمي إذن ياسيدتي انني لا امهل عندك مربياً للاطفال .

ـ إذن ، كان عليك ألا تبلوني بهم .

تذكر وصفي ما اعتزمه وهشام من امر ، فانصرف عن المحاورة التي قد تطول الى الابد ، من غير جدوى ، الى الاطفال الثلاثة ، كانوا ثابتين في مكانهم بعد ، يتفرجون بدون ملل . سألهم :

ـ أيوجد دكان قريب من هنا ؟

لم يجبهُ أحد .. مجرد عيون دكناء تحملق فيه ، بغير قليل من حياد ، كأنهم حيال رجل أجنبي يخاطبهم بلغة أجنبية .

تقدم هشام :

ـ منصور .. أنت من يعتمد عليه . نريد سنارة ، لصيد السمك . سنارة ، أتعرف ما هي السنارة ؟

أجاب الصبي باندفاع مفاجىء :

ـ نعم ، سنارة . سأجلب لكم واحدة .

وأخرج وصفي بضعة فرنكات :

ـ كم ثمنها ؟

ـ فرنكان اثنان ، وفرنك للخيط .

ـ طيب ،خذ..هذه ثلاثة فرنكات . عندما ترجع ساعطيك فرنكا مكافأة . أسرع .

وانطلق منصور في الحال ، يعدو خلال الحقل ، وهو يلقي بجسمه وساقيه وذراعيه معاً في الهواء ، كان يشبه أرنباًمبتورالاذنين.

أثناء ذلك فكرت سنيـة : أيكون هشام خبيثاً حقاً كما قالت ماجدة ؟ كثيراً ماراودتها فكرة ، أقلقتها أحياناً ، بجعلها ان هذا الرجل العابس ينطوي على قابلية للتلاؤم معهـــا ، ولكنها لم تكن تجرؤ مرة واحدة على اطالة التفكير على هذا النحو . تكتفي بالتحسر : « انها القسمة العجيبة ، ولا يمكن رد قضاء الله ! » وفي الوقت نفسه كانت ماجدة تفكر بأن سنية غير محظوظة مع وصفي. كان يجب أن تتزوج من رجل يقدر جمالها . وبالرغم من أن زوجها هي ينعت رفيقتها دائماً بالبقرة البيضاء ، فان هذا الجمال كان يخيف ماجدة .. انها لاتصدق ان هشاماً يزدريها ولا يتمنى الارتماء عليها . لكنه خبثه الذي يجعلهيقلب الأمور رأساً على عقب ،أمامالآخرين، ليظهر لهم الأشياء على غير حقيقتها ، مجرد تعمية . الأمر واضح : انها لا تصدق أن ثمة جمالاً في الدنيا يضاهي هـذا الجمال ، ولطالما ثارت غيرتها ازاءه حتى ذهبت الى التفكير أحياناً بقطع كل علاقة لها بها خوفاً على زوجها، من غير أن تستطيع اتخاذ قرار فعلي بهذا. فهي تحبها محبة عميقة .

بعد غياب منصور ارتبك أخواه ، أحسا بشيء يشبه الذعر من وضعها ، وخطر لها أنه قد آن أوان التحرك بعيدا ، وقد يكونان على كل حال قد ملآ البقاء هنا ، أو أنهما يئسا من رؤية شيء غير عادي ... انهم يتشابهون أبناء المدينة هؤلاء ، بلباسهم الأفرنجي، بكلامهم المطوط، بتأففهم من الفلاحين، بغربتهم... نعم ، هم أغراب تماماً ، من عالم آخر ، من طينة أخرى . وكأنهما مربوطان بخيط أراجوز تحركا في وقت واحد ، قبل اللحظة التي صاحت سنية فيها تأمر زوجها :

ـ أبعد هؤلاء القذرين من هنا .. حتى تأخذهم وتأخذ قذارتهم معهم .

ضحكت ماجدة ضحكة كسلى ، هشة . وأراد هشام أن يقول لها بأن بذاءة سنية شيء لا يدعو إلى الضحك . ولكنه لم يفعل سوى أن يقرصها بنظرة سامة ، ويائسة .

وتلفتت سنية تكشف المكان حولها بنظرة فاحصة . أصبحت الآن بلا رقيب ، تستطيع أن تفعل ماتريد فهبت الى ثمار السفرجل الفجة تقطف منها كل كبيرة قريبة من مدّ يدها ، مُصِمّةً أذنيها عن ردع زوجها وتحذيره من رؤية اصحاب البستان لها ، غير مبالية بسخطه . ثم ما ملك من الامر إلا أن يسكت وهو يحس بالصّغار ، خاصة بوجود هشام الذي كان يحسه دائماً ذا وطء

ثقيل عليه . لولاه لهان الامر . وساوره ضيق من حضورهذا الرجل المتزمت الذي لايسامح ولا ينفك عن جعل الحبة قبة .

أما هشام فأحس بأن سنيهتسرقه هو ، تسرقأمنهوراحته، هو الهارب من صخب دمشق ، من كثافتها ، لنهار واحد . بل ان ذلك بدا له تحدياً تعيساً لضميره . احتج قائلا :

ـ هذه النزهة تتحول الى محنة كما أرى .

صح ماتوقعه وصفي ، فابتسم مدارياً الحرج . وقال هشام مستكملا .

ـ جئنا نروّح عن أنفسنا . اننـــا لم نركب مئة وثلاثين كيلومترا من أجل أن نسرق الفلاحين رزقهم ، حرام !

قالت سنية ، ضاحكة :

ـ مادخلك أنت ؟ فظاعة !

قال لزوجته :

ـ ما رأيك بجولة إلى أعلى النهر ؟ أريد مشاهـــدة القرية والمطحنة المائية هناك .

قالت زوجته دون أن تدرك أزمته :

ـ اذهب أنت . أنا مرتاحة هكذا ، باستلقائي هنا .. هذا كل ما أريد .

ـ الكسل .

ـ الكسل ، اذا شئت تسميته .

وأطال نظرة حائرة اليها ... ثم قال بصوت أكثرهدوءاً،
هدوءاً من ذلك النوع الذي يصيب سجيناً في زنزانة ، أو بخاراً
مضغوطاً في اسطوانة :

ـ انظري حولك، ألا تثير فيك هذه المناظر أي احساس؟
ألا تنفعلين بهذا الجمال ؟

ـ جمال ؟

وانتفضت تضحك من أعماقها ، واذ تمالكت نفسها قليلا
نبرت من خلال ضحكها :

ـ حتى الفلاحات ؟

ـ من الذي تحدث عن الفلاحات؟ هذا هذا، انظري حولك،
قلت : الطبيعة ، كان كلامي واضحاً .

تلك كانت العاصفة . وتدخل وصفي في الحال :

ـ دعها ، سنذهب معاً .

وابتعدا .

كانت الشمس تصعد الى القمة الان، بهدوء مجيد ، كملكة

على هذا الكون ، تسيطر عليه دون ضجة ولا افتعال ، تمنحه مع ذلك الروح والحركة والبهاء .

تنهد هشام ، ثم قال بمرارة :

ـ كان يجب ألا اتزوج . انك تشعر بالحاجة الملحة اليهن ، حتى تعتقد أنك لاتستطيع الاستغناء عنهن ، لاتستطيع اعطاءهن ظهرك . وبعد ذلك .. انظر .. مجرد تفاهة . مخازن المدينة ، وزحمة الشوارع ، والاضواء .. ذلك هو ما يعطي للحياة قيمة في نظرهن .

قال وصفي ، بلهجة اعتذار :

ـ زوجتك أحسن من زوجتي ، على كل حال . سنيه لم تزل ملك أمها وأبيها حتى الآن . انهما مسيطران عليها ، على روحها ، بصورة كاملة . يخيل لي ان عقلها تجمد منذ ولدت . فهي تفكر بعقل أمها ، مثلما هي تحيا بروح أبيها . كم يشقيني ذلك !

وشاهدا رجلين مختبئين في ركن مظلل من الشاطيء خوفاً من أعين الشرطة ، وبيد كل منهما قصبة طويلة يتدلى منها خيط في الماء . حياهما هشام وسألهما :

ـ هل اصطدتما شيئاً ؟

ـ قال أحدهما :

ـ لم نوفق بعد .. بضع سمكات صغيرة جداً .

ـ من أين أتيتما بالسنارات ؟

ـ من البلدة .

ـ ألا يبيعون سنارات هنا ، في القرية ؟

ـ لا .

فنظر الى وصفي ضاحكا ، وقال هذا مبتسما :

ـ خدعنا منصورك ، ابن الحرام .

وحين رجعا الى مكانهما ، اقترحت ماجده ان يباشرا بتدبير مواد طعام الغداء . كان الجوع قد تمكن منها ، أحست به احساساً رائعاً لم تعرفه في البيت — هذه اول مرة تغادر فيها دمشق .

تكفل وصفي بالبحث عن البستاني ليشتري تشكيلة من الخضروات . وظل هشام جالساً على جذع شجرة مرمي على حافة النهر ، يراقب مجموعة من السمك الصغير ، ويعاني شعوراً فاجعاً من أن زوجته — التي احبها بصدق قبل الزواج — بعيدة عنه ، بعيدة كل البعد . أما ماجدة فلا تزال مستلقية في مكانها ، نائمـــة وهي مفتوحة العينين ، في حين قامت سنية بالتمهيد لعملية الطهو ، وكان طفلها يلهو بالأغصان الجافة المتناثرة على الارض ، وبالتراب وكل مايقع تحت يديه ، أصبح الآن قذراً اكثر من ابن أي فلاح .

سمع هشام صوت من يلقي السلام عليه ، فالتفت خلفه ..

اذا برجل قروي ، اقرب الى القصر ، صلب الملامح، يقول لهبصوت جامد النبرة ، مثل ضربات معول في تربة جافة ينطوي على غضب عاجز :

ـ هذه السفرجلة لانملك غيرها . نحن لانسمح . أعني .. يجب ان نحافظ عليها . نحن نربح أقل مما يلزمنا ـ الحمد لله ، نحن نحصل على الخبز ، وهذا هو المهم . اذا جردت السيدة هذه الشجرة من ثمارها جردتنا من جزء من تحويشة العمر . أتفهم ياسيد ؟ يمكن لهذا الجزء أن يبدو تافهاً في نظركم ، لكنه بالنسبة لنا ثروة ، أتفهم ياسيد ؟ اذا كنتم ، من غير مؤاخذة ..

قاطعه هشام بعصبية ، شعر بالخزي أمام هذاالرجل ،النقي كل هذا النقاء ، هذا الفلاح الذي شققه الارهاق والشقاء ثم يقول : الحمد لله ، كان الخزي ينصب فوق رأسه فيغرقه حتى الروح .. قاطعه بعصبية :

ـ افهم ، أفهم .

ثم حاول أن يلطف صوته ، وهو يتحمل العذاب بصعوبة :

ـ طيب ياخي ، لن تمتد يد اليها بعد . أعدك .

وعانى مهانة جديدة . كان كاذباً ، فلو قامت سنيه باغارة ثانية ، في هذه اللحظة بالذات ، ماعساه يستطيع معها ؟

واجناحه غضب حقود . أراد ان يقوم ليصفعها ، ليمرغ هذا البهاء الخلب في تراب هذا الحقل . أحس بالحقد عليها طاغياً .

وكان الفلاح مستمراً في شرح حالته ، وقد اصبح هادئاً الآن ، مثل خرير هذا النهير :

ـ هلكت في توفير شيء من النقود لاستئجار هذه القطعة الصغيرة من البستان ، لمدة ثلاث سنوات .. انها كما تراها ، لاتغل كفاية اسرة ، ولو أسرة صغيرة ، ثلاثة حقول صغيرة للباذنجان والكوسا والبندورة ، أنت ترى : حقولا صغيرة . أما شجرات التين هذه فلانكاد نستفيد منها نصف ثمارها ، لعجزنا عن حمايتها من الزوار ومن أبناء القرية . حالتنا صعبة ، اذا أردت الحقيقة، أتفهم ياسيد ؟ صعبة .

نبر هشام فارغ الصبر :

ـ قلت لك أفهم يارجل ، أفهم جيداً .

صرخت سنية :

ـ على كل حال ، ابنك ، منصور الكلب ، سرقنا ، اخذ منا ثلاثة فرنكات .

ـ ليس لي ابن اسمه منصور ياسيدة ، لاأعرفه .

ـ اذهب ، حمى تأخذك ماا كذبك !

- سامحك الله ياسيده .

وانصرف . بصقت السيدة جانباً وهي تغمغم :

- على جنسك النجس .

ادرك هشام أنه يحتاج الى حركة عنيفة في هذه اللحظة ، حركة تسحق شيئاً ما ، صرصاراً ، أفعى ، ربما رأس سنية . لكنه لم يزد الا استسلاماً لسكونيته وفورانه الداخلي الذي يفتته . اكتفى بنظرة مروعة ألقاها على سنيه وهي تفعل ذلك ، ثم طأطـأ رأسه أرضاً ، دافناً عينيه في التربة المعشبة .

ولما جاء وصفي ، يحمل بعض الأشياء ، أخبرهم بأنه رأى الصبيين اللذين كانا صحبة منصور فأنكرا أن يكون منصور أخاهما ، قالا بأنه من القرية ولم يوضحا هويته .

زعقت الاوزة :

- وباء يأخذهم ، انهم لصوص ، هؤلاء الفلاحون ، يعيشون ليسرقوا . الحق عليك أنت .. فلاح صغير خدعك وبلصك ، أيها المسكين .

فضحك ، وهو يفرغ حمله أمامها ، قائلاً :

- أعوذ بالله من هذه المرأة .

واذ رأت امامها كوسا وبندورة فقط ، قالت :

- نريد باذنجان أيضاً .

ــ طيب ، لاتزعقي ، سأرى صاحب البستان .

ــ لماذا ؟

ــ لأشتري منه باذنجان .

ــ تشتري منه ؟ اتعني أنك اشتريت الكوسا والبندورة اذن ؟

ــ طبعاً ، ماذا اذن ؟

ــ اسمعوا ياجماعة الى هذا التخريف . أشياء مبذولة هنا ، تحت اليد ، أمام نظره ، ويشتريها !

ــ يا امرأة أتريدين بهدلتنا ؟

ــ بهدلة ؟ لماذا ؟ خسئوا ، انهم مجرد فلاحين .

ــ ولو .. انهم يعيشون من هذه الاشياء .

نهضت بجمية ، متناولة المزودة الجلدية من يده :

ــ اليك عني ، ما أبرد دمك !

علقت ماجدة برخاوة :

ــ كأنه هشام .

وانطلقت سنيه باتجاه حقل الباذنجان قائلة :

ــ والله نكتة ! يريد أن يحاضر !

ولم يستطع وصفي فعل شيء سوى صيحته العقيمة :

ــ سنيه ، ارجعي ياسنيه !

كان هشام ، من مكانه على جذع الشجرة المهدل ، يراقب بصمت وغضبه يتأكله . وحين سمع زوجته تقول :

ـ هم سرقوا نقودنا ، وبمقابلها يجب ان نأخذ مايحلو لنا . ما الذي يحدث غير هذا ؟

انفجر صارخاً :

ـ اخرسي !

وتوجهت اليه نظرات ماجدة ووصفي والطفل بدهشة ، حتى سنيه التي شرعت تقطف الباذنجان توقفت تستطلع تلك الصرخة . قالت ماجدة :

ـ حذار هشام ، لاتتماد !

وهب واقفاً :

ـ هيا اذن ، سنعود الى دمشق .

ـ هشام ، اتركنا في سلام ياأخي ، ما الذي يغضبك ؟ ام أنك مسؤول عن هؤلاء الحيوانات وحقولهم ؟

وتدخل وصفي :

ـ صل على النبي . اهدأ . القضية لاتستأهل هذا كله . هيا ، دعونا نبدأ باعداد الطعام .

واستدرك مغمغماً :

ـ لانفع من المناقشة معها .

ومضى الوقت بعد ذلك غليظا .

وبُعَيدَ الغداء نام وصفي ، واستلقى هشام بجانبه يحرق سكائره واحدة فوق واحدة . أما السيدتان فكانتا ممددتين تحت السفرجلة تثرثران باسترخاء كامل وببطء . ويبدو أن فوزي لم يكن على وفاق مع الهدوء مطلقاً ، كان الآن يقطف التين الفج من الأغصان السفلى ، المتدلية حتى ذراع من الأرض ، ويقذف بها العصافير أو ذلك الكلب الصغير الذي جذبته رائحة طعامهم من مكان ما ، أو يلقي بها الى الماء ، وهو يهمهم همهمة لاتبين لانشغال فمه الدائم بالمصاصة .

على أن سنيه لم ترض بهذا الوضع طويلا . أتستلقي هكذا ، وهي تتطلع الى بقية كبيرات السفرجل من غير أن تلبي تحديها ؟ أية حماقة ! فقامت باغارة واسعة النطاق هذه المرة . وتضاحكت ماجدة ، ثم أغمضت عينيها ، ترجو صحبة نوم تحبه أكثر مما تحب أي شيء .

دمشق ١٩٦٢

الشـــوق

كان الشارع نظيفا متالقا ، غسلته أمطار الأيام الثلاثـــة الماضية ، التي انقطعت عصر هذا اليوم . أبهجه أن يكون الطريق على هذا القدر من النظافة ، وراح يستمتع بانعكاسات الأنوار الساطعة على الاسفلت المبلل والسيارات تحاول تمزيقها . في حين كان صديقه يتأمل واجهات المخازن ، فلاحظ :

ـ حتى بائعو البودرة تنتعش صناديقهم في رأس السنة .

لم يع ملاحظة صديقه في الحال ، حتى فطن الى أن زجاج واجهات المخازن كلها مزركش بالمسحوق الأبيض ، تتخلل ذلك عبارة « ميلاد سعيد » بأحرف أجنبية وعربية . وفيما خلف الزجاج تتناثر ندف من القطن الأبيض .

تساءل أسعد :

ـ لماذا يربطون بين الثلج وبين عيد الميلاد ؟ ان تساقط الثلوج في عيد الميلاد ليس شرطاً ، مارأيك ؟

قال كمال :

ـ في بلادنا ؟ لا ، ليس شرطاً . أظن أن هذا مجرد تقليد أجنبي . في اوروبا يوجد هذا الارتباط . على كل حال كان ثمة ثلوج على جبال الجليل عندما ولد المسيح .

وأعاد كمال التحديق الى واجهات المخازن . حقا .. لقد سفحوا كميات كبيرة من البودرة . قبل خروجه من البيت ، منذ قليل ، كانت ثريا ترش البودرة بين فخذي طفلها وهي تغير قماطه ، باذلة شيئاً من الجهد لتسيطر على حركات ساقيه في مقاومته للتقميط ، انه لايحب القماط ، لايحب حتى السروال . ولد شقي . واذصدمت ساقه أنبوبة البودرة بعنف ، انهال قليل من المسحوق على الأرض ، قليل من المسحوق قد لايساوي اكثر من القرش الواحد . ولكن ثريا غضبت ، وكادت تعاقبه ، لم يمنعها من ضربه على ساقه العارية إلا مرضه .

وافرغ كمال هواء رئتيه المفسود بزفرة حادة . سأله اسعد :

ـ مابك ؟

لم يجد جواباً موجزاً . غمغم بعد لحظات من الصمت :

ـ لقد اسهرنا الطفل طيلة الليل .

ـ امريض هو ؟

ـ المشكلة في مرض الطفل انه لايستطيع التعبير عنه الا بالبكاء . وتحاول انت جاهدا معرفة العلة لتتوصل الى اسكاته .. ولكن كيف ؟ انه لايعرف الكلام . وهكذا يستبد بك القلق والغضب في آن واحد .. يتفطر قلبك اشفاقاً عليه ، وتود في الوقت نفسه ان تلقي به مع صوته من النافذة .

ضحك أسعد ، دون ان يعرف لماذا ، ومع ذلك كانت ضحكته زكية هفهافة ، مثل رشة البودرة ، ثم قال :

ـ الحمد لله الذي أراحني من الزواج ومصائبه .

ورفع ياقة معطفه حول رقبته ، بينما اقترب منهما صبي صغير قذر ، يرتدي ثيابا خفيفة مهلهلة . وقال بلهجة ذليلة :

ـ فرنك من اجل الله .

قال أسعد :

ـ ابعد عنا من أجل الله .

ـ يسعدكم الله ، فرنك واحد لاشتري رغيف خبز .

ولبث ملتصقاً بهما يردد توسلاته ، حتى نفد صبر كمال فأمسكه بذراعه منحنياً فوقه :

ـ اسمع ، ان لم ترحنا من خلقتك ، فسأصفعك صفعـــة تعمي عينيك . هيا انصرف .

ودفع به عنه ، فتوقف الصبي قبل أن يسقط على الأرض ، وأحدّ النظر في وجه الرجل بغيظ ، ثم هز كتفيه واندفع نحو رجل وامرأة يسيران ملتصقين . نبر كمال :

ـ العمى ! كم هم وقحون ! مثل ذباب نيسان !

وتوقفا امام مخزن لعب . واستعرضا أنواعاً عديدة منهـا بصمت . كان اسعد يفكر بغبطة اخوته الصغار لو كان قد فطن واشترى لهم بعضاً من هذه الدمى . في بلدته الصغيرة ، التي تشبه ان تكون قرية ، يصنعون دمى ساذجة من قضيبين يثبتون احدهما على الآخر ، بشكل صليب ، ثم يكسونها بخرقة . لايعرفون غير هذا النوع البدائي من الدمى . وأحس بشوق لأن يكون هناك الآن ، وقد ارتسمت في خياله معالم البلدة وبيتهم الفسيـح بوضوح . قال كمال ، بصوت عميق هادىء ، كمن يقرأ شعراً :

ـ في عهد طفولتي .. ماعرفنا هذه الاشياء كلها . اذكر ان اختي الكبرى كانت تملك دمية من الجبس تمثل طفلة حلوة . اما انا فقد اشترى لي أبي ، في أحد اعيـاد الفطر ، بزة عسكرية .. بزة ضابط يتدلى من حزامها سيف صغير من التنك اللامـع . لاأزال

أذكر كم كان فخوراً وانا أسير الى جانبه في شوارع المدينة، مرتديا تلك البزة ، ونحن ننتقل من بيت الى بيت نبارك بالعيد .

وضحك ضحكة قاطعة ، مبحوحة وصغيرة وقاطعة ، كأنها جزء من كلمة لم يهتم ببقيتها :

ـ كان يأمل ان أكون ضابطاً .

ـ أنا .. كانت دميتي الوحيدة المقلاع . اتعرف المقلاع ؟

ـ طبعاً

ـ اسبق لك العيش في قرية ؟

ـ أي نعم . في الحرب . لجأت امرتي الى قرية هربا من الغارات الجوية . كنت في الثامنة.

توقفت سيارة « فيات » صغيرة عند رأس الزقاق الفرعي، على بعد خطوتين من مخزن اللعب . رآها أسعد ، ورأى صاحبها يهبط منها ويدخل مخزن الزهور المقابل . ثم تنبه الى وجه مضيء خلف الزجاج ، داخل السيارة .. وجه أبيض يؤطره شعر اسود وتبرق فيه عينان سوداوان واسعتان مكحولتان . هتف :

ـ ياإلهي !

وحملق من جديد . عينان سوداوان واسعتان ، يوضح خطوطها كحل اسود بارع الرسم في ذلك الوجه الابيض المستدير ..

وقد رمقتاه ورفيقه بنظرة ندية ، خيل اليه انها اطول من المعتاد .
وكان كمال قد استدار يستفسر :

ـ ماذا ؟

ـ انظر مافي السيارة .

وبالرغم من اندهاشه ، هز كمال كتفيه ، ومشى قائلاً:

ـ هيا ، الوقوف غير مستحب في هذا الجو البارد.

ولكن اسعد تلكأ قليلا لعله يدرك ماوراء نظرة الحسناء من معنى . ولما رأى صديقه مبتعداً عنه انطلق خلفه . وقال :

ـ هنيئاً لكم ، انتم المتزوجين ، مرتاحون من هذه المشاكل .

ـ تزوج اذن لتجرب هناءنا .

قال ذلك بلهجة ساخرة أدهشت أسعد ، فتساءل :

ـ أولست هانئاً ؟

ـ بلى ، بقدر مايهنأ مريض بالقرحة .

ضحك أسعد ، مرة اخرى دون ان يعرف لماذا ،وقال :

ـ عجيب ! لماذا تزوجت اذن ؟

لم يكن كمال قادراً ـ حتى هذا الوقت ـ على معرفة جواب هذا السؤال ، رغم انه سؤاله اليومي ، يواجه عقدته صباح مساء .
وقال أسعد :

ـ كنت على وشك الزواج قبل مغادرتي البلدة ، ولكني

اكتشفت في اللحظة المناسبة أنه من الحماقة أن أتزوج قبل ان ابلغ الثلاثين .

لم ير كمال فيما قاله رفيقه مايستوجب الكلام ، ولم يعرف منطقاً يسوغ ربط الزواج بسن الثلاثين بصورة خاصة . ظل ساكتاً .

السيارات الخاصة بدأت تقل . انتهى الناس من شراء جميع لوازم حفلاتهم ، على مايبدو ، وحان الوقت ليهيئوا انفسهم لسهرة طويلة مرحة . وفكر أسعد بصوته :

ـ كان يجب ان نتدبر نحن ايضاً سهرتنا في مكان ما .

قال كمال :

ـ انا لايهمني هذا .

ـ لماذا ؟ اتصوره امراً بهيجاً .

ـ انا لااتصوره كذلك ، ولاعكس ذلك .

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ الانسان يخضع ـ في فرحه واحزانه ـ لظروفه . أيمكنني ان افرح مثلا لمجرد أن عرفاً معيناً ، في يوم معين ، يفرض علي ان أفرح ؟

ـ الا يفرض الجو عليك ذلك ؟

ـ الجو ؟

تساءل كمال متضايقاً ، ولكنه قال في الحال :

ـ جائز . بشرط ان تكون نفسي مهيأة للدخول في الجو أصلاً .

واعترضهما شاب شديد السمرة ، وهو يترنح مثل شجيرة في حضن الريح العاصفة ، قائلا بلهجة رخوة ، تشتهي الرقاد ، رغم مافيها من اشتعال :

ـ في الجو أو على الأرض ، لسوف أمحقه .. اقطعه اربا .

ادرك كمال أنه سكران ، قال له :

ـ طيب ، انت بطل .

كان الشاب ذا سمرة داكنة ، وشفتين غليظتين ، وكان وجهه قاسياً ، وعابساً . سأل كمالا وهو يحاول أن يستقر :

ـ أأنت سائق تكسي ؟

ـ لا .

ـ ماذا انت اذن ؟

ـ موظف .

ـ وهذا ؟

قال أسعد :

ـ شرطي .

وطاب للناس ان يتجمعوا حولهم ، فدار السكران حول

نفسه دورة كاملة حتى واجه الرفيقين من جديد ، وقال لكمال :

ـ كنت متأكداً انك لست سائق تكسي . انت تبدو ابن حلال . سائقو التكسي اولاد حرام ، لو استطعت الامساك بواحد منهم لمزقته وسحقت عظامه .

كان الكلام يتفجر من فمه تفجراً ، وعيناه تشتعلان بالغضب .

ـ كنا نسير معاً . ولما أردنا عبور الطريق لم يمهلنا . كانت السيارة ستقتل صديقي ، صديقي الشجاع . ابناءبعلبك كلهم شجعان . صديقي من بعلبك ، ولكن دولاب السيارة مرّ فوق قدمه فهرسها داخل الحذاء ، عدوت خلف السيارة ، لم استطع اللحاق بها ، لو كنت ... آخ ! لو امسكت بصاحبها لسحقت عظامه .

قال كمال ، وكان الناس يتضاحكون خلسة ، مثل عذارى محتشمات :

ـ الحقُ معك .

ـ ماذا يظنون انفسهم؟ بمجرد ان يجلس احدهم خلف المقود يظن نفسه الله ، ساعتها جميع الناس لايساوون في نظره شيئاً ، اهو إله ؟ إنه ليس إلهاً ليستبيح ارواح البشر ، طيب ، والله لوامسكت به لسحقته مثل حشرة صغيرة ، ماذا يظننا ؟ حميراً ؟ ام انه يظن نفسه الله ؟ فليظهر لي كيما اريه من هو ، ساحطم رأسه ،

وترنح بشدة وهو يقوم بحركة هجوم عنيفه بقبضته خلال الهواء ، فتراجع الناس خطوة وخطوتين الى الوراء جفلين . ولكنه تمالك نفسه ، وحاول التماسك ، وهو يرمق الوجوه حوله بنظرته الغاضبة تلك . قال أسعد :

ـ أنا شرطي ، أتريد أن تقدم شكوى ؟

تفرس السكران في هيكله الصغير لحظة . ثم قال ، عائدا الى مرامقة الناس :

ـ لن يسمع احد شكوى فقير .. عندما أقف أمام القاضي ، سيسخر الناس مني . سيقولون ما الفائدة من حياتك ؟ أيها الفقير .. أنت يا ابن الكلب .. اذهب ولا تعمل مشاكل .. شُفْ لك جُحراً تخبىء فيه نفسك . ولكني سأسحقه اذا رأيته ، سأشعل النار في سيارته . سأفعل هذا بيدي أنا .. انظر ، انهما قويتان كفاية . لا أحتـــاج اليك ولا الى القاضي . سأنتقم لصديقي البعلبكي من جميع السائقين .

ابتسم كمال قائلا :

ـ والآن ، يا أخ ، قد سمعناك ، ونشهد أن الحق معك ، هل تسمح لنا بالانصراف ؟

ـ انت اذهب . رفيقك لا . يجب أن يسمعني هذا الشرطي الصغير حتى النهاية .

ـ ولكنه ليس شرطيا . كان يزح معك .

اصبحت عيناه اكثر اشتعالا ، وزمجر :

ـ يسخر مني ؟

قال أسعد :

ـ لا ، العفو يا أخ ، كنت أمزح .. امزح فقط .

فتراخى السكران ، وتنفس بارتياح ، رامقاً الناس بنظرة جامدة ، حيادية ،ثم تابع طريقه من غير أن يلوي عليهم مرةاخرى. عندئذ ضج بعضهم بالضحك ، وتابع كل مسيرته ، كذلك فعـل كمال وأسعد .

وفكر أسعد بصوته :

ـ لديّ الاستعداد لسماعه يهذي هكذا حتى الصبح .

قال كمال بلهجة تشبه تفتت أحجار كلسية :

ـ اسمع ، لماذا لاتذهب للبحث عن اصدقاء آخرين ؟ انت تريد الاحتفال برأس السنة ، مثل الآخرين . طيب ، اذهب وتدبر سهرة مع اصدقائك ، لاتفسد ليلتك معي .

تساءل اسعد بنقاء :

ـ وأنت ؟

ـ عندما أملّ المشي أعود الى البيت .

ـ الى البيت ؟ وماذا ستفعل في البيت ؟

ـ ما يفعله أي رجل .

قال ذلك كمن يلقي من يده عقب سيكارة اطفأته الرطوبة . وفكر أسعد : ما عسى أن يفعل الرجال في بيوتهم ، في مثل هذه الليلة ، غير أن يحتفلوا بالعيد ؟ في بلدته لا يحتفلون بشيء كهذا .. انهم لا يعرفون سوى عيدين يحتفلون بهما بصورة صاخبة : عيد الفطر وعيد الأضحى ، يسمون الأول العيد الصغير والثاني العيد الكبير . أما هنا ، في المدينة ، في دمشق ، فالأعياد كثيرة . وفي هذه الليلة يسهر الناس حتى الصباح في مرح وطرب . هذا ما يعرفه ، على الأقل ، خلال ما يسمعه وما يطالعه في الصحف .

لقد نال كمال كفايته اليومية من متعة السير في الشوارع ، والتطلع الى واجهات المخازن ، ووجوه الناس وأزياء الناس . لم تبق لديه الآن أية رغبة في أن يستمر متسكعاً دقيقة اخرى . توقف يسأل رفيقه :

ـ ماذا قررت ؟

أحس اسعد بالسؤال مباغتاً ، مثل كمين في طريق آمنة . لم يكن قد فكر باتخاذ قرار ما . ومع ذلك قال في الحال :

ـ ما رأيك بالسينما ؟

ـ الا تريد أن تحتفل برأس السنة ؟

فتضاحك بذلك النقاء نفسه :

ـ كنت أريد ذلك لمجرد الفضول . على كل حال ، أنا لا أبالي بنهاية سنة أو بدايتها . ان هذا كله لايعني شيئاً ، أليس كذلك ؟

وفي الحال أدرك انه ردد أفكار كمال نفسه . ليكن ، انه مؤمن بما قال . ولكنه ، مع ذلك ، أحس بوطأة رفيقه عليه ، على أفكاره ، فعانى انزعاجاً زاد من ارتباكه . قال كمال :

ـ لا أدري . المهم انني لن اذهب الى أي مكان . سأشتري بعض الفاكهة واذهب الى البيت . يجب أن اكون مع أطفالي وزوجتي بعد هذا الوقت .

ـ طيب ، كما تريد .

وتصافحا . ومضى كمال .

تنبه اسعد الى أن الشوارع تكاد تقفر من الناس . ويبدو أن اصحاب المخازن اقتنعوا بان أحداً لن يأتي بعدُ لشراء شيء ، فشرعوا في اغلاق دكاكينهم .

وكان لايزال واقفاً في مكانه ، حيث تركه صديقه ، على الرصيف ، حائراً . إن لم يلق أحداً من اصدقائه الآخرين ، أين

يذهب ؟ أيذهب الى البيت أيضاً ؟ كال لديه ، في البيت ، أطفال
وزوجة . ماذا لديه هو ، في البيت ؟ ومرة اخرى احس بالشوق ،
يطفو من داخل قلبه ، الى امرته ، هناك في بلدته البعيدة . عندئذ
خطر له أن يذهب الى مقهاه المعتاد ، ويحتسي قدحاً كبيراً من الشاي
الساخن ، ويكتب رسالة الى امرته .

دمشق — ١٩٦٤

كُبَّة بدُون هَبْرة

ـ لقد طلبوا النجدة من القيادة العليا .

ـ القيادة العليا ؟ هه، وهل بقي لهم قيادة عليا؟لاتصدقوا. انه لغو . مجرد إشاعة ، وهي حيلة لارهابنا .

ـ لا ادري . ولكن الجنود العرب الذين هربوا لينضموا الى الثوار يؤكدون ان الكولونيل شوقيـل استنجد بكتيبة من المدفعية لفك الحصار عن مواقعهم المتبقية في ايديهم .

ـ أنحن أغبياء لنصدق هذا ؟ اسمعوا .. ان الثورة مشتعلة في كل مكان ، في كل شبر من سورية ، فهل يجرؤون على الانسحاب من أي مكان لنجدتهم في مكان غيره ؟

ـ ولكن هب انهم فعلوا . يجب ان نتحسب لكل احتمال. لقد نفدت ذخيرتنا ، كما تعلمون ، وهذا مالايعلمه الفرنسيون، وإلا

ما كانو يظلون محصورين داخل جدران الثكنات ويستنجدون بقوات خارجية ، الله وحده يعلم من أين ستأتيهم .

ـ اسمحوا لي أيها الاخوان .. باعتباري ضابطاً سابقاً في الجيش فاني استطيع التكهن في مثل هذه الاحوال .

ـ طيب ، قل اذن ، ماذا ترى ؟

ـ ان طلبهم النجدة شيء منطقي ، بعد ان دحرناهم وطردناهم من أغلب مواقعهم في المدينة واحتللنا المطار وثكنة الهجانة ، ثم حاصرناهم هذا الحصار المحكم .

ـ طيب ، لم نختلف .. ولكن من اين لهم بالنجدة ؟

نظر الضابط المتقاعد الى السماء ، وقال :

ـ من فوق كما أخمن .

ـ لا تكفر يا رجل .

ـ ولكني قصدت الطيران أيها الغبي . هل نسيتم ان مطار الحسكة الحربي لا يبعد عنا كثيراً ؟

وساد السكون لحظات كثيفة . حقاً .. انهم لم يفكروا بهذا من قبل ابدا . يجب الا يستهينوا بكلام هذا الضابط المجرب . وأخيراً قال المحافظ :

ـ طيب .. اسمعوا يا اخوان .. المجاهدون يجب ان يظلوا

صامدين في مراكزهم حول الثكنات ، ريثما نبعث بوسل الى شيوخ العشائر لارسال بعض فرسانهم المسلحين لنجدتنا .

كان الخبر قد سرى بسرعة في المدينة وتغلغل في البيوت : الفرنسيون طلبوا نجدة . سوف يهدمون المدينة . وهكذا أُخرج الناس من داخل بيوتهم ، وتجمعوا على الابواب يثرثرون في عصبية ظاهرة . منذ عشرة ايام وهم يعيشون تحت ازيز الرصاص وهدير المدرعات وهزيم مدافعها ، حتى اوشكوا على الانتصار النهائي وكادوا ان يتخلصوا من الخوف والضغط على الاعصاب ويرقصوا رقصة النصر . ولكن ، يا إلهي ! لم انتهت ذخيرة الرجال؟وفي اليوم الحاسم ؟ وها هم أولاء يتلقون نذير الهزيمة .

ـ أية فاجعة ستحل بنا يا جاري لوعاد الفرنسيون الى السيطرة علينا ؟

ـ لا قدر الله . لو حصل هذا فان شوليل سوف ينتقم منا انتقاماً مريعاً .. لقد احرق الثوار بيته وقتلوا امرأته .

ـ عشيقته ، وانت الصادق . لا تنسى انها عربية ، لبنانية ، ولهذا اعدمها الثوار باعتبارها خائنة ، فلو كانت فرنسية لما نالها أي أذى .

ـ صحيح . ذلك هو الضابط الفرنسي الذي التجأ الى بيت

ابي السعود ... ان احدا من الناس لم يمسه بريشة . انه يعيش هناك وكأنه في بيته .

ـ المهم ، ان هذا لن يفيدنا شيئا .. سوف يفنون كثيراً من الناس قبل ان يرووا حقدهم .

كانت هناك مجموعة من النسوة قد كفت عن الكلام وانصتت الى حديث الشيخين ، فلطمت امرأة صدرها بكفيها وصاحت :

ـ يا ويلي ! ما هذه المصيبة ؟

فناحت المجموعة :

ـ ياويلي ! لينزل الله عليهم بلاء من عنده . ليرسل لهم صواعق تحرقهم وتهدم هذه الثكنات اللعينة فوقهم .

وقال احد الشيخين بأسى :

ـ رحم الله ايام الجدود .. كانت السيوف والرماح لاتحتاج الى ذخيرة .. لاتحتاج الا لسواعد قوية وصدق في الجهاد .

لم تكن زمر المحاربين الثوار لتستطيع الخروج من حيرتها لقد عرضت لقادتها حلول مختلفة ، بيد ان كل حل واجه اعتراضات كثيرة . وكان اغلبهم يخشى من دخول العشائر الى المدينة لنجدتهم . كانوا يفضلون ان يحوزوا على سلاح العشائر وذخيرتها وهي تكفيهم لقتال شهر بكامله . « فلو دخلت العشائر المدينة لمساعدتنا فان هدفهم

سيظل مركزاً على النهب ، وهذا الهدف يكون على الاغلب شركاً بائساً لصاحبه ، فيخسر ونخسر نحن ما جاهدنا من اجله » .

ولكن زعماء الثورة لم يجدوا مناصاً من ذلك وكذلك المحافظ ، والضباط الوطنيين الذين تركوا الجيش الفرنسي وانضموا الى الثوار المحاربين . وكان المحافظ الان ينتظر قدوم شيوخ العشائر مع فرسانهم المسلحين ، ليتفقوا على خطة موحدة يرسمها لهم الضباط الوطنيون ، بعد ان طمأنهم الى ان الارياف لا يمكن ان تتعرض لأي خطر من قبل الفرنسيين .. فما جدوى بقائهم هناك ؟

كم بدا الوقت بطيئاً ورخيصاً قبل هذا الصباح الذي لم تسمع فيه طلقة رصاص واحدة ! ومع ذلك فان سكونه لم يكن ينم عن هدوء ، لم يكن يحمل اي بشير، كما توهم الناس عند بزوغ الشمس. كان ترقب قلق يشد الاعين الى الاعين، الى الظل وهو يتقلص امام موكب الشمس الصاعدة في طريقها المعتاد ، والى عقارب الساعات التي انطلقت تعدو بسرعة مذهلة في فلكها وكأنها تؤدي العاب سباق مسلية مثل اطفال بلغت منهم الشقاوة حداً فقدوا عنده كل لياقة .

كانت المدينة بيتاً يحاصره الحريق ، وقف سكانه عاجزين يترقبون منقذاً من الخارج . في حين كانت المقابر تعج بالنساء، بعويلهن الدامي ، بثيابهن الممزقة فوق الصدور، بشعورهن المنفوشة

نتفن منها الكثير وحملته الريح الى مهاو مطمئنة ، يلطمهن الصدور بالاكف ورملهن الوجوه ، وحسوهن التراب فوق رؤوسهن تفجعاً على الزوج والاب والاخ والابن ، الذين استقرت جثثهم تحت تراب هذا المكان الموحش الكئيب ، جثة بعد جثة ، وخلال عشرة من الايام ، واخيراً بالنداءات الصارخة يطلقها هذا الطفل او ذاك طالباً ثدياً أو حناناً من ام جف ثديها وفقدت كل حنان .

حوالي الظهيرة اجتازت مجموعة كبيرة من فرسان الاعراب الجسر الكبير الذي يصل بين دير الزور وبين ريفها الشرقي، الواقع على اطراف الجزيرة ، ودخلت شارع الحويقة متجهة الى قلب المدينة .. اكثر من مئة من الفرسان يخبون على خيولهم هازجين باهازيج الحماسة الحربية ، رافعين بنادقهم الانكليزية والالمانية والفرنسية الى أعلى ، يلوّحون بها بمرح ، وعيونهم تبرق بالبهجة ، كأنهم يلبون دعوة الى وليمة عرس شهية . لقد بهر منظرهم هذا الناس ، واقتلعهم من فوق اصلبة اليأس ، فراحوا يتقافزون مهللين، مصفقين بايديهم ، يحيون الموكب الرائع .

على الشاطىء الغربي من فرع الفرات الذي يخترق المدينة كان يقبع بناء ضخم لعب اكبر دور في تاريخ عهد الانتداب في دير الزور ، انه مقر الاستخبارات ، وكان يضم اخطر الوثائق عن هذه المدينة وسكانها ، كما ضم اخطر العتاة من رجال الانتداب الذين

روعوا الناس طوال ليلهم المديد ذاك .. كان هذا المقر واحداً من المواقع المحاصرة .. وكان اول موقع في طريق النجدة الاعرابية التي لم تعن بالتوقف لحظة واحدة لأخذ أية تعليمات عما يجب ان تفعل .. بالنسبة لها الحرب هي الشيء الوحيد الذي يدهشها ان يقال عنه أنه يحتاج الى تعليمات .. إنها فرس وبندقية واهزوجة، ولا يضل بعد ذلك سوى الأعمى .

وعندما لمحت طلائع الأعراب المصفحات ، بعد أن انعطفت الى يمين الجسر الصغير ، صاحت صيحة نشوة ، وهزت افراسها ، فانطلقت باقصى قوتها ، ثم تدحرجت على الأرض تتخبط في احتضار غريب ، تدهن الاسفلت بدمائها ، على بعد خمسين خطـــوة من المصفحات التي انهالت نيران رشاشاتها على الصدور المندفعة اليـها . اذ ذاك فقط ادرك الفرسان ان للوليمة ثمناً فاحشـاً ، وافاقوا الى الواقع .. انهم بمواجهة فرنسا بمصفحاتها ومدافعها ، لاقبيـلة اخرى تماثلهم . بعد هذا فكروا ، وخططوا ، ثم شرعوا في زحف بطيء حتى تمكنوا من تطويق مقر الاستخبارات الصامد ، ولكن الدماء الحارة كانت تغلي في اجسادهم الصحراوية المتمردة على المنطـــق ، فاندفعوا اندفاعة النمور الجريحة الى الموت او النصر .

وهكذا امتلأ جو المدينة بعربدة انفجارات تتجـــاوب اصداؤها في الأزقة البعيدة ، من جديد . وكان ثمة فارق الآن ..

لم تعد هذه العربدة تزعج النـــاس وترعبهم . كانت في هذه المرة انتصاراً على الرعب ، وفرحة للحياة . وذلك بالرغم من انزعاج زعماء الثورة ، والمحافظ ، والضباط الوطنيين ، الذين هالهم أن يفلت امر التنظيم والتوجيه من ايديهم ، وان تتحول الثورة الى فوضى نزوة عشائرية ، قد تنتهي بها الى الانتحار .. ولكن من يملك الخيـار ؟ فليتذرعوا بالتفاؤل بدلاً عن ذلك . انهم فرسان تربوا على الشجاعة ، وهم يملكون سلاحاً جيداً ، والعدو منهار النفس .

ولم يعد الناس يفكرون بالهجرة الى كهوف الجبل . إن ساعات قليلة ستضع حداً لهذا كله ، ستنتهي كل شيء ، ويصبحون هم أسياد المصير ، فلا يظـل للعـدو أي سلطان يخشـون منه على أنفسهم .

ـ صارت ساعتهم مؤكدة يا أخي .

ـ ان شاء الله ، إن شاء الله .

ـ ربك كريم ، فما الذي تخشاه ؟

ـ اسمعي يا آمنه ، آن لك ان تتحفينا بابريق من الشاي يبل النفس ، مارأيكم ياجماعة ؟

ـ أي والله ، نعم الرأي .. طاب وقته .

ـ عجلي إذن يا آمنة .

– اسمع يا ابا مرعي ، بعد يوم سنراك وانت تسوق حمارك محملاً ببضاعتك اللعينة الى الاعراب لتغشهم ثم تشتمهم لأنهم لم يملؤوا جيوبك بالنقود كما تأمل دائماً .

وقهقهت ام مرعى ضاحكة ، في حين قال هو متضاحكاً :

– أبداً ، أبداً ، ياجماعة ، انهم اناس يستحقون الاحترام كما ترون .. لن اعود الى ذلك أبداً .

وقال صبي لرفاقه :

– غداً سنذهب الى المدرسة .

– يا الهي ، هذا صحيح !

– ولن نعود الى عمل الاضرابات والمظاهرات .

– طبعاً اذا رحل الفرنسيون ، فلماذا نضرب .

– ولن نرشق الثكنات وقيادة الموقع بالحجارة .

– الثكنات وقيادة الموقع ستتهدم وتزول .

– كيف ايها الاهبل ! ستبقى ، ولكن بدلاً عن الجيش الفرنسي سيكون هناك جيش سوري .

– من اخبرك بهذا ؟

– ابي .. انه يعرف ..

– ولكن هذه الثكنات فرنسية .

ـ لا ، غلطان ليس للفرنسيين شيء في بلادنا ، لايملكون ذرة واحدة من التراب .

وانطلقت صرخة امرأة في أحد الأحياء ، لقد اكتشفت أن طفلها المريض ميت . وزغردت امرأة غيرها في حي آخر لأن كنتها ولدت طفلاً ذكراً . وفي المقبرة وقفت حلقات الثاكلات والمترملات مستمرة في الندب والنواح فوق القبور النـــدية . واستطاع في هذا الوقت احد الازواج مضاجعة امرأته تحت سقف غرفة لها نافذة تطل على جمع من الجيران في الطريق ، يتبادلون انخاب الفرحة كلمات وكلمات .. لقد زال الخوف ، واعتدل مزاج الزوجة . وفي غرفة اخرى في الحي نفسه، انقلبت امرأة في نفاسها فوق وليدها ولم تستفق وترجع الى رشدها الا بعد ان كان الوليد قد فارق الحياة تماماً ، واصبح جسده الغض الأحمر يابساً أزرق اللون ، فانتحبت وهي تتساءل « أأنا من قتلك ؟ » كان شيئاً بعيداً عن التصديق . وثمة عذراء في الخارج ، كانت تقف على الرصيف منصتة الى احاديث الناس وهي تحلم بلقاء حبيبها الذي لم تره منـــذ أيام وايام كانها الأبد .. يا الهي ، كم كانت بغيضة ، هذه الايام !

حسناً . قد سقط موقع .. احتـــل المجاهدون مركز الاستخبارات العتيد ، ولم تعد المصفحات مصفحات .

وكان فرسان الاعراب يطوقون المواقع الاخرى قبـــل

الانتهاء من تخريب مركز الاستخبارات مع المحاربين الثـوار من ابناء المدينة جنباً الى جنب . وكانت أهازيجهم الحربيـــة المتفجرة بايقاع واحد بهيجة ورائعة تجعل المحارب يقاتل وكأنه يلهـو ، في حين انها توقع الرهبة في قلوب الآخرين ، خلف الاسوار والمصفحات والمدرعات . وكان الثوار قد اطلقوا نداءات متعددة ومتكررة الى الجنود العرب في الجيش الفرنسي .. لقد هرب قسم كبير منهم ، ولكن من تبقى كان يثير العجب والسخط لدى الثوار :

ــ العمى ! لو ساعدنا هؤلاء الكلاب من داخل صفوف الفرنسيين لانتهينا منذ اليوم الأول للثورة .

ــ اولاد الزانية حريصون على قصعاتهم . هم ليسوا وطنيين ، انهم بطنيون .

وضج الرفاق بالضحك ، وكانت الاهازيج تختلط بازيز الرصاص وهزيم المدفعية بصورة سحرية ، حتى ان الشمس توقفت قليلا ، هناك فوق الشكنتين الغربيتين ، وهي ترمق المشهد مفتونة ، قبل ان تتابع دورتها وتختفي خلف جبل البشري .

كان الثوار يأملون ان ينتهوا قبل هبوط العتمة . على ان حسابهم كما بدا لم يكن دقيقا ، كانوا يعتمدون على ثقتهم بانفسهم فقط ، وكانوا يتضايقون من الخطط التي يلغو بها الضباط .. وهكذا

تمددت المعركة على طول الليل ، ولم تُجْدِ كثيرا تلك الهجمات الفدائية التي قام بها بعض الزمر او الافراد .

وكان سكان مدينة دير الزور، في اغلبهم، نائمين من التعب ، بعد ان اطمأنوا الى نتيجة المعركة ، للسبب نفسه ، الثقة العظيمة في النفس ، عنـــدما رجعت الشمس الى الظهور مرة اخرى من الشرق .. لم تكن شمسا طيبة ايضا .. لان سربا من الطائرات ظهر على ضوئها الساطع ، هكذا فجأة ، وراح يلقي بالقنابل هنا وهناك فوق البيوت وعلى اسفلت الشوارع ، فكانت الانفجارات تهز اركان المنازل وتسقط بعض السقوف والجدران ، وتحطم زجاج عدد كبير من النوافذ ، وتخض القلوب المطمئنة خضا عنيفا .

واندفع الناس الى الشوارع ، لم يبق داخل البيوت إلا الاطفال ذوو النوم الثقيل ، مذعورين يفركون عيونهم المنتفخة من نوم مبتسر . يالهي ! فعلوها ! هاهي ذي الطائرات ، كما خمن ذلك الضابط المتقاعد ، تغير علينا !

ــ ياويلي ، سيخربون البلد !

ــ اسكتي يا امرأة !

وصاح مختار الحي :

ــ قلنا لكم ان تخلوا المدينة وتلجأوا الى الكهوف فسخرتم منا .

— لم نكن نصدق ان الوحشية تبلغ هذا الحد .

— وامصيبتاه ! ابني ، حبيبي ، أين ذهب سلمان ؟

— اخرسي ، الم نتركه نائمــاً في الفراش ؟ ادخلي الى البيت ، هيا .

كانت الطائرات قد اختفت من الجو ، وتركت انقاض بعض البيوت فوق اجساد اصحابها المحطمة أو المهروسة . وتعالى صراخ سكان البيوت المجاورة ، مثل مجموعة من الاوز المذعور . وراح اناس يتراكضون في شوارع المدينة بلا هدف ، وهم يصيحون « الطائرات تقذفنا بالقنابل » ، كأنهم وحدهم العالمون بالخبر .

كان الذعر سيدا ماكراوقويا ، احتل المدينة بسرعة مذهلة ، وعلى حين غرة ، فزعزع النفوس وسلبها كل تلك الثقة التي باتوا عليها ، وافقد الرجال اتزانهم فاختلفوا فيما ينبغي ان يفعلوه .

وبعد نصف ساعة فوجئت المدينة بسرب آخر فوقها ، يرمي بكمية اخرى من القنابل والموت . ولم يكن ثمة ملجأ سوى كهوف الجبل ، فاندفع بعض السكان الى هناك ، والهلع يشد قلوبهم وعيونهم الى السماء ، حيث شياطين الجحيم المرعــدة تبصق لعناتها المدمرة .

وكان هناك مزيد من الدمار . وقال البعض :

— حسبنا !

ـ نعم ، هـذا يكفي .. معقول ان يضحي الرجال بارواحهم ، ولكن ان تهدم المدينة كلها ويقتل اطفالنا بقنابل الطائرات .. هـــذا غير معقول ، اذا كانوا وحوشا فلن نشاركهم وحشيتهم .

واعترض الاخرون :

ـ ايها الجبنـاء ، لاتتخذوا من موت اثنين او ثلاثـة من الاطفال حجة لحماية انفسكم انتم . يجب ان نصمد ، حتى الرمق الاخير .

ـ نعم ، نعم ، لن نستسلم ونحن اسياد الموقف الآن ـ سوف نصمد .

ومع ذلك فان الفريق الاول لم يتوان لحظة واحدة عن رفع الشراشف البيضاء على سطوح منازله ، حينما سمع هدير طائرات السرب الثالث يسبقها مقتربا من المدينة .. وجن جنون المحاربين الثوار وهم يرون الاقمشة البيضـــاء ترفرف على سطوح منازل كثيرة ، ثم قاذفات القنابل وهي تحلق في الجو تحوم فوق المدينة في بطء وخيلاء ...

ـ انظروا ، ياللجبناء !

ـ شارات الاستسلام بدلا عن رايات النصر ؟

ـ فليترك بعضكم مراكزه ويذهب الى تلك المنازل ويمزق راياتها الذليلة .

ـ فلنذهب ، سنجعل منها اكفانا لاصحابها .

ـ قفوا . اقترح ان نطلق النيران على هـــذه الطائرات المغرورة لنفهمها اننا لم نستسلم .

وانطلقت عشرات من الرصاص في الجو ، باتجاه سرب الطائرات . ولكن بعد فوات الاوان . فقد كان في اللحظة نفسها يبتعد عائدا الى قاعدته .

وكانت مفاجأة اخرى اشد هولا تنتظر الثوار بعد ذلك . فقد اخذ فرسان العشائر ينسحبون جماعـــات وراء جماعات : « ذخيرتهم نفدت ، كان هذا نتيجة محتومة لفوضاهم ، كانوا يحاربون بعشوائية ، وكان يخيل لنا ان كل غايتهم هي ان يطلقوا النار » .

ـ هذا ما كنا نخشاه ايها الرفاق .

ـ والآن ، ماالعمل ؟

ـ ألم تستسلم حاميتا الميادين والبوكمال ؟

ـ اظن انني سمعت ذلك .

ـ فلنبعث بسيارات تحمل الينا سلاح فلولها وذخيرتها .

ـ وما ادراك بما خلفت المقاومة لديهم من ذخيرة ، ذخيرتهم منذ البداية لم تكن كثيرة .

وكان المحافظ في قصر المحافظة مع قائد الدرك ، وبعض زعماء الثورة، اكثر حيرة . وكان النقاش يستهلك نفسه ، ويستهلك الوقت أيضاً ، ولم تكن فكرة القاء السلاح خيانة فحسب :

ـ يا اخوان ، انها مسألة مصير ، وليست مسألة خلاف بين فئة من الناس وبين اخرى . اذا كنا لانستطيع الآن متابعةالقتال لعدم توفر ذخيرة لذلك .. فلا يمكننا أن نستسلم أيضاً .

وقال المحافظ :

ـ الهدنة غير الاستسلام أيها الأخ .

ـ هدنة ؟ لن يقبلوا بها اذا عرفوا افتقارنا للذخيرة .

ـ بالعكس ، في ظني انهم يرحبون بها .

كان نصف سكان المدينة قد حول المغاور الواسعة فيسفوح الجبل الى بيوت مشتركة، كل مغارة احتلها عدد من الاسر ونظفوها من آثار سكانها الأصليين: ثعالب وذئاب وطيور كاسرة وحتىأفاع. ثمة اشاعات كثيرة حولها في هذه الكهوف ، لاسيما ذلك الكهف المنخفض الذي يسمى مغارة ابن سعود . وعند الظهيرة اشتعلت النيران في كل مغارة، ورفعت فوقها أباريق الشاي ، وكانعشرات من الأطفال والصبية يلعبون أمام مداخلها أو حولها في تلك الحفر الواسعة التي كانت مقالع حجر .. أحسوا فجأة بانهم في واحدة من

نزهاتهم الربيعية الحلوة . بل بدا هذا الاحساس وكأنه غزا الكبار أيضاً ، الذين اقترحوا على النساء منهم أن يصنعن « كبة نية » !

وتساءلت احدى الزوجات :

ـ ولكن من أين نأتي بالهبرة ؟

قال الزوج :

ـ دعوها من غير هبرة الآن .

ـ اسمعوا هذا الكلام .. لو فعلتُها مرة واحدة من قبل لحلف بالطلاق .

ـ لن تكون لها نكهة . كبة نية من غير هبرة !

ـ عندي اقتراح .. نمسك بحمامة من أحد الجحور ، أوأرنباً اذا استطعنا .

ـ بدون سلاح ؟

ـ بالحيلة .

ـ لماذا لاتذهب وتظهر شطارتك مع الفرنسيين اذن ؟

ـ اسكتي انت .

ـ اي نعم ، هذه هي شطارتك : اسكتي انت !

وأقبل الصبية والأطفال مندفعين الى داخل الجحور ، شاحبي الوجوه ، وبعضهم يصرخ : جنود ، جنود !

وهب الرجال يتساءلون :

ـ جنود ؟ أين ؟

ـ على طريق الشام .. عشرات من الشاحنات والمصفحات تحمل الجنود وهي تتجه الى المدينة ..

وفي المدينة كان كل شيء قد انهار عندما رؤيت كل تلك السيارات والمصفحات تباغت الناس وهي تنحدر من فتحة في جبل البشري، على طريق دمشق .

وأدرك الثوار انهم منتحرون لامحالة اذا هم عاندوا قدرهم الآن ، اصبح الصمود حماقة كبرى .. فانسحبوا من مراكزهم المحيطة بالمواقع المحاصرة في الحال .. وكانوا دهشين بقدر ما كانوا مخذولين :

ـ عجيب ! من أين جاؤوا بهذه القوات كلها .

ـ من فرنسا حتما .

ـ حسبي الله ونعم الوكيل .

ـ لابأس .. إن هي إلا جولة اخرى وليست الاخيرة ..

وكان المحافظ في القصر ، مع كبار الموظفين والضباط ، يتداولون الموقف إزاء المفاجأة الجديدة .. كان الرأي الغالب أن ينسحبوا الى الريف حيث يعيدون تنظيم الصفوف ويجلبون السلاح

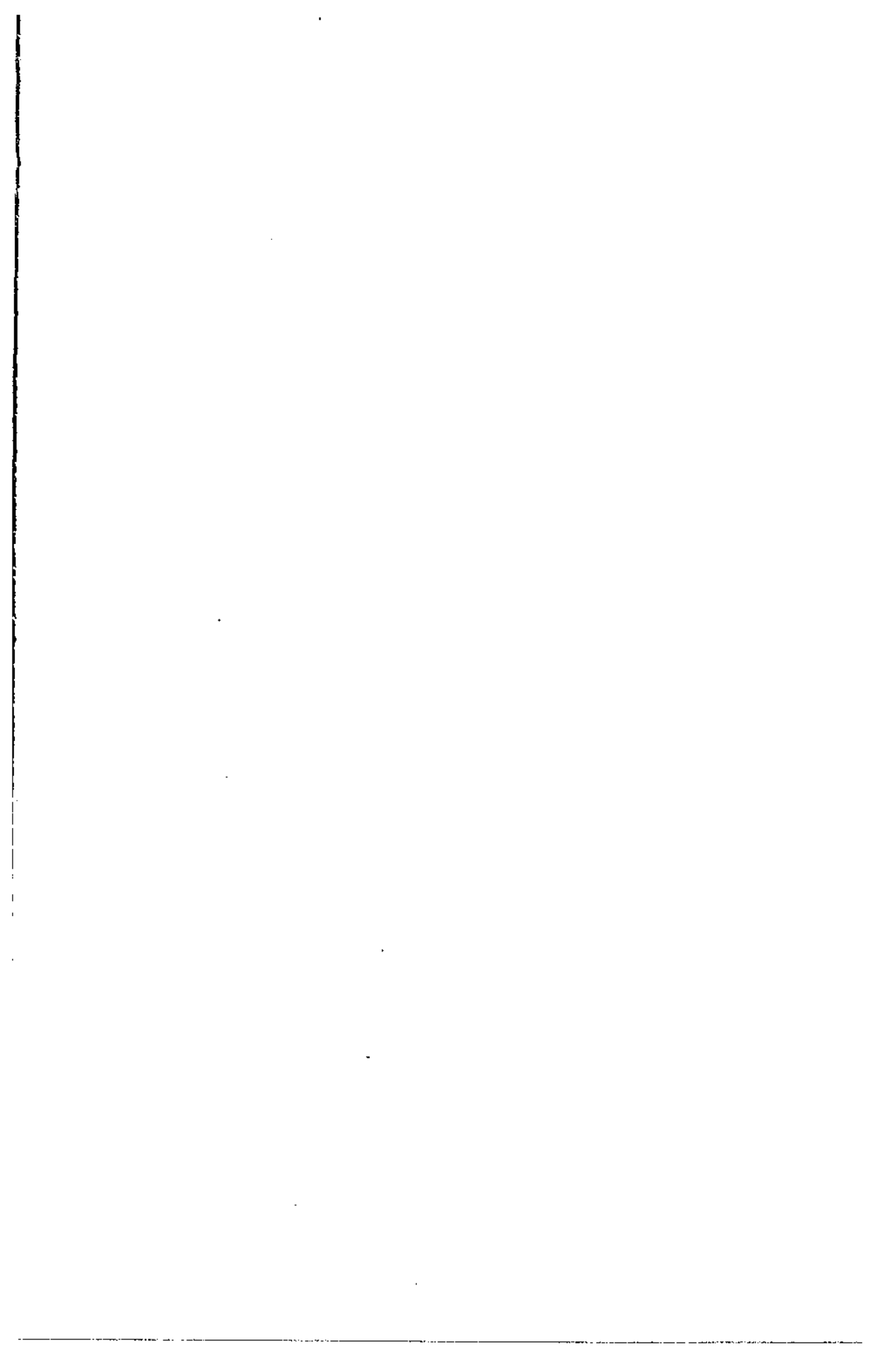
والذخيرة من العراق . على أن جهاز الهاتف الذي كان يقبع على مكتب المحافظ ، صامتاً بارداً في تلك اللحظات ، انفجر بغتة برنين حاد . وعندما رفع المحافظ السماعة الى اذنه ، جاءه صوت يقول :

ـ انهم انكليز !

ـ انكليز ! لماذا جاؤوا ؟

ـ الوقوف بيننا وبين الفرنسيين ريثما يتم جلاؤهم .. هكذا تم الاتفاق في العاصمة .

دمشق — ١٩٦٥



العيد

كانت ساحة القرية تعج بالناس ، بُعيد عصر اليوم الأخير من العيد .. وكان هذا ينزف ،مثل الناس ، فقد انهكوه كما انهكهم ، وامست الساحة أقل زهواً .

وفي نهاية الدرب ، حيث يقطعه الافق ، بدت نقطة سوداء على بياض التراب ، لم يرها أهل القرية ، ولا هؤلاء الذين تناثروا على الساحة ، الا عينان ، أتعبها توقع طويل ، لمحاها باهتمام ..

كانت مجموعة من الفتيات يجلسن مسترخيات على تراب ركن من الساحة ، يقابل منحى الطريق الذي يذهب الى المدينة ، وكن يقامرن على بقايا فرنكاتهن بوساطة كومة من التراب . كان دور غازية في التوزيع الآن .. فخلطت الفرنكات بالتراب ، ثم وزعته كويمات على عدد المقامرات ، هي ورفيقاتها الثلاث . حدقت الفتيات الى الكويمات في حيرة ، ورفعت غازية عينيها المتعبتين وشخصت

بها الى أعلى الطريق .. فلمحت تلك النقطة السوداء ، وخفق قلبها بشدة حتى شحب وجهها .. ثم نهضت تمد النظر الى بعيد ، وخطت الى الطريق غير آبهة لاحتجاج اللاعبات ، وتوقفت بعد خطوات أربع أو خمس . كانت النقطة ضئيلة، وساكنة .. ولكنها استطاعت أن تشد غازية اليها حتى التصقت بها . أينتهي الضياع ؟ - نذرت سبع شمعات للخضر .

وإذ تنبهت الفتيات الى شاغل رفيقتهن قمن الى جوارها متطلعات الى بعيد . وتساءلت فاطمة :

- أترين شيئاً ؟

وعلا صوت من داخل الساحة ، ينادي :

- ما بالكم يا شباب ؟ هل تعبتم ؟ هيا الى الدبكة من جديد .

وفي الحال ترك الأطفال اللعب وهرعوا الى وسط الساحة حيث شرع الشباب في التأهب للرقص ، وقام الطبال ، قبل ان ينال كفايته من النوم ، الى طبله يعلقه برقبته ، في حين اخذ الزمار مزماره وراح يجرب النفخ فيه .. وبعد دقيقة اصطخبت الساحة بالضجيج ، واستقطبت حلقة الدبكة المفتوحة اهتمام الجميع فتحلقوا حولها ، وكان الأطفال يحاولون الاندساس داخل الحلقة، للمشاركة في الرقص ، فيطردون برفسات من أرجل الراقصين .

وبقيت غازية وحدها ، تترقب النقطة السوداء أن تتجسم .

لقد ذهب الى المدينة ليعمل ويملأ جيبه بالنقود .. وكان موعدهما ان يلتقيا في العيد . كان يجب ان يأتي يوم الوقفة . ما كان لائقاً به ان يجعل منها سخرية رفيقاتها : « هيا ! ياللك من ساذجة ! اتصدقين ؟ هناك بنات المدينة السافرات الناعمات ، بزينتهن وعطرهن » ولكنها تصدق .. انه يحبها ، وقد وعدها .

كانت النقطة السوداء تكبر ببطء شديد .

وتبدلت حلقة الدبكة بأخرى ، انضمت اليها بضع فتيات وكان صاحب صندوق الفرجة يجلس على مقعد النظارة الخشبي يدخن ويراقب الراقصين بسرور بالغ ، في حين ظل بائع الحلوى يلح في لفت نظر الاطفال الذين استنفدوا كل امكاناتهم المحدودة سأله صاحب الصور :

ـ ألم تشبع ؟

ـ لاتحشر أنفك .

فضحك صاحب الصور ، وهو يصفع فخذه ، فبدت أسنانه السوداء طويلة متباعدة ، وقال :

ـ يُفضح ريشك ، مثل اليهودي !

فنبر صاحب الحلوى ، وهو يتابع اهتزازات صدور الفتيات الراقصات :

ـ خسئت ، قبحك الله !

وإذ ذاك جاء المختار ، يحف به بعض الرجال الكهول ، ومعهم ساقي القهوة يحمل دلوته .. فهتف له الراقصون متوقفين عن الدبكة ، وراحوا يتجرعون القهوة المرة بنشوة ، وهم يتمنون للمختار طول العمر ودوام العز . وبعد ذلك امسكوا به وارغموه على الانخراط في حلقة الدبكة وارتفع قرع الطبل يرعد الجو .

ووضح اخيراً ذلك الجسم .. رأت غازية انساناً يسير على ساقين . كانت تريد ان تعدو لاستقباله ، لاختصار تلك المسافة ، الانتظار بات مميتاً الآن .. بيد ان ثمة اناساً هناك .. وامامهم لايمكن لها ان تفعل كل ماتريد .

اقترب صاحب الحلوى من الساقي ، الذي كان يقتعدصخرة صغيرة ، قريباً من حلقة الدبكة ، وسأله :

ـ اولسنا في الحساب يا اخ ؟

ـ اهلاً وسهلا ، الدلوة كلها على حسابك .

ـ تعيش ، ياابا الجود ، انا ممتن لك .

كان طبق الحلوى فوق منصبه ،في مكانه ، مهملاً . .فواتت الفرصة صبياً في العاشرة ترقبها طويلاً . وتسلل بخفة الى الطبق ، فملأ قبضته بالحلوى وابتعد . غير انه لم يفلت من عيني صاحب الصور ، فصرخ :

ـ اين انت يارجل ، سرقوا حلواك .

فاندفع الصبي هاربا ، وعدا الرجل يريد اللحاق به ،ولكنه لم يستطع .. كانت ساقاه هرمتين ، فتوقف ، مطلقاً بعض الشتائم خلف السارق .

هتفت امرأة عجوز :

ـ عيب يارجل ! انه فقير ، اعتبرها صدقة تزكيك .

وقالت له امرأة اخرى :

ـ انه ابن عبده الاخرس . أبوه لايملك فرنكاواحداً .

ـ طيب ، طيب .. امرنا لله .

وقال له صاحب الفرجة :

ـ انت سيقتلك الطمع .. أردت ان تكسب فنجالاً من القهوة فخسرت كمشة حلوى .

ـ كان لازماً ان يحدث هـذا لتفرح انت .. انت تفرح بمصائب الناس .

كان القادم من المدينة قد اقترب الان من غازية صار في امكان بصرها ان يميزه لم يكن رجلها .. كان رجلاً آخر ، غريباً لاتعرفه .. فأحست بالغضب يتفشأ في جسدها كله . وعندئذ انهار بصرها الى الأرض مثل خرقة تمزع نسيجها من حدة الشد . ثم لم

تلبث ان تبعت عينيها ، قعدت وهي تراوغ شكوكها ... لم تكن تريد أن تستسلم .. طالما ان الشمس لم تغب فالعيد لم ينته . للغائب حجته .

ومر بها الغريب متباطئاً .. فرفعت رأسها ، ورمقته بفضول ... انه فتى من اهل المدينة . ما الذي جاء به ؟ وأفلت منها سؤال :

ـ أأنت مقبل من المدينة ؟

توقف الغريب ، ورمقها بامعان ، ثم ابتسم :

ـ نعم .

خجلت من نظرته الفاضحة فأخفضت عينيها .

ـ أتريدين شيئاً ؟

ـ لا .

ثم قالت ، على استحياء :

ـ كنت أريد .. ولكنك لن تعرف .. المدينة كبيرة .. الناس هناك لا يعرفون جيرانهم كما سمعت .

ـ قولي ، ربما اعرف . الك رجل في المدينة ؟

فازداد وجهها احمراراً . ولكنها سارعت تقول :

ـ لا .. انه اخي وعدنا ان يأتي في العيد .. اسمه علي .. علي مراش .

ـ هل ذهب منذ زمن طويل ؟

ـ نعم ، منذ ستة أشهر .

ـ لماذا ؟

ـ من أجل ان يعمل ويأتي بنقود .

ـ أأنتم بحاجة الى نقود ؟

ـ نعم .. لكي .. يتزوج .

ـ ها !

وضحك ، متطلعاً الى الساحة :

هل هناك عرس ؟

فلحظته بدهشة :

ـ لا .. ألا تعرف ان .. اننا في عيد ؟

ـ ها !

وضحك مرة أخرى :

ـ أما زلتم تحتفلون بشيء كهذا ؟

ـ ومرة أخرى ادهشها : كم هو عجيب !

ـ نعم .. الا تفعلون انتم اهل المدينة ؟

ـ لاعيد في المدينة ياجميلة..

ـ اسمي ليس جميلة .

ـ ليكن مايكون .. انا اقصد انك جميلة .

وكبلها الخجل .. ولكن قلبها خفق كعصفور يخرج من الماء .

ـ أنت جميلة حقاً . ارفعي وجهك لأراه ، يجب الا تخفيه .. انه نعمة .

اندست كلماته العذبة في شرايينها ، فالتهب دمها ، بيد انها قالت :

ـ عيب يارجل ! لو سمعك أحد من أهل القرية لما حصل خير .

ـ لماذا ؟ انا اقول الصدق .

فنظرت اليه ، استطاعت ان تثبت عينيها في عينيه لحظة قصيرة ، وعندئذ ارتعدت مثل ارنب يواجه اسداً .. فقفزت مبتعدة عنه ، ومضت الى حشد الواقفين حول حلقة الدبكة . وراحت تراقب الراقصين ، وهم يتقافزون في حماسة ، منقلة عينيها من راقص الى آخر ، مجاهدة لتزيل زرقة حلوة من سواد عينيها . لقد اختلطت زرقة عينيه ـ هذا الغريب ـ بكل شيء تراه .. كان الراقصون جميعاً مشوبين بالزرقة ، ماعدا اعينهم التي ظلت سوداء او بنية . والتقت عيناها بعيني فاطمة ، اخص الصديقات ، فرأتها مبتسمتين لامعتين . صاحت فاطمة :

ـ تعالي يابلهاء .. لن يأتي .

وفي هذه اللحظة انحسرت الزرقة عن عينيها ، وحل محلها وخز اجتاح قلبها ، فحاولت ان تتماسك بعناد .

انفصل المختار عن الحلقة لاهثاً ..

ـ مالك يامختار ؟

ـ تابعوا ، بارك الله في الشباب ، قد هرمنا .

وضحك الناس ، بينما سارعت دقات الطبل تنهي الدبكة .. فأقبل ساقي القهوة يوزع شرابه المر على الراقصين الـذين شرعوا يجففون العرق على صدوغهم ورقابهم . وتحلق الاطفال مكان الرجال يدبكون من غير طبل ولامزمار .. ثم توقفوا عن المحاكاة عندما رأوا الغريب ، ابن المدينة ، يمر بهم ، مخترقاً الساحـة ، وراحوا يتأملونه ، وبنطاله الازرق وقميصه النبيذي ذي الكمين القصيرين .

سأل الغريب أحدهم :

ـ اين الدكان ؟

قال الطفل في حمية :

ـ تعال ادلك .

ومشى باتجاه الدكان ، فتبعه الاطفال الاخرون . ولكن الغريب تلكأ . ملقياً بنظرة دائرية فاحصة على ماحوله .. وكان كل

من حوله يتفحصه بفضول محايد ، الا غازية التي احست باضطراب اعصابها ، اذ تعثرت نظرته بها وتلبثت قليلا فوق وجهها ، فتلفتت حولها تستطلع أعين الناس قلقة ثم ادارت ظهرها له فمشى متمهلا وراء الطفل .

وعند اقتراب الغريب من بائع الحلوى ، تساءل هذا :

ـ ماذا تريد من الدكان ؟

قال الغريب :

ـ سلامتك .

قال البائع :

ـ الدكان مقفلة .. صاحبها في المدينة .

وتوقف الفتى مستديراً الى محدثه :

ـ كيف ؟ اني على موعد معه .

ـ اذا كنت لاتصدق فاذهب وتأكد بنفسك . لن يرجع قبل العشاء ، انا اعرف هذا .. لقد ذهب الى المدينة .. لم يعدلدى الناس نقود يشترون بها ، وهو لم يتبق في دكانه منالبضائع الاالقليل الذي لايباع .. أي نعم ، في اليوم الاخير من العيد تكون النقود جميعها قد تبخرت من جيوب الناس .. اين تذهب ؟ لاأحد يعلم .

فقال صاحب الصور :

ـ بلى .. انا اعلم .. انت وامثالك من اليهود يجمعونها .

ـ اني اعمل بشرف ، هلا سددت حلقك .

وسأله الغريب .

ـ أأنت يهودي ؟

ـ لايارجل ، انه يكذب هذا العجوز الكافر .

فضحك صاحب الصور ، واشار بيديه الى سحنة بائـــع الحلوى قائلا :

ـ انت تشبه اليهود على كل حال ، مارأيك ياسيد ؟ انت ابن المدينة واسع الاطلاع ، الا يشبه اليهود ؟

قال ابن المدينة ضجراً :

ـ احقاً انه في المدينة ، اعني صاحب الدكان .

قال بائع الحلوى في حماسة :

ـ أي والله ، كما قلت لك ذهب يجدد شبابه .

وغمز بعينه ..

ـ ماذا تريد منه ؟

ـ سيقدمني لاحد المزارعين ـ انا سائق جرار ، كنت

ابحث عن عمل فوعـد بتقديمي الى مزارع هنا يحتـــاج الى سائق جرار .

ـ هم . هل انت قريبه ؟

ـ لنفرض انني قريبه .

ـ أنعم واكرم .

ودوى الطبل من جديد .. فاستدار الغريب . كانت حلقة راقصين من الرجال والنساء تتشكل . والتقطت نظرتـه الساخرة غازية وهي تتقدم للمشاركة في الدبكة ، فابتسم وظل يتطلع اليها وحدها .

حينما دار الراقصون بحلقتهم المفتوحة نصف دورة . شاهدت غازية الغريب وهو يرمقها . فغطت عينيها باهدابها .. ثم فكرت : هذا ابن مدينة قد اعجب بها ، بل هو قد فتن بها . فما بال علي ؟ لماذا لم يأت ليراها في العيد ؟ لقد جاهدت في سبيل ان تتهيأ للقائه في ثياب جديدة . هـــذه هي ثياب جديدة ترتديها من اجله . وكم تفننت في تكحيل عينيها وتزيين شعرها كل صباح وكل ظهر ، من كل يوم من ايام العيد هذه التي مرت .. من اجله هو . فهل سحرته بنات المدينة حقا ؟ ليته يرى ابن المدينة كيف ينظر اليها اذن ! ليته سمع كلماته الحلوة تلك !

وفجأة اهتز صدرها. كانت موجة من البكاء هناك. فتركت ذراعي شريكيها، وهربت .. الدنيا تتقلص الان .. الدنيا لم تعد دنيا .. انما قفص صغير .. مجرد قفص صغير . وكانت الشمس توشك على السقوط خلف القرية . العيد يولي . انتهى العيد. وتوقفت خطواتها العمياء عند زاوية كوخ متداع . مهجور .. ولكنها لم تتردد طويلا ، فدلفت الى الداخل ، واسندت جبينها الى الجدار وشهقت، فتفجر النحيب بجدة . وتدفقت دموعها ، تغسل الكحل .

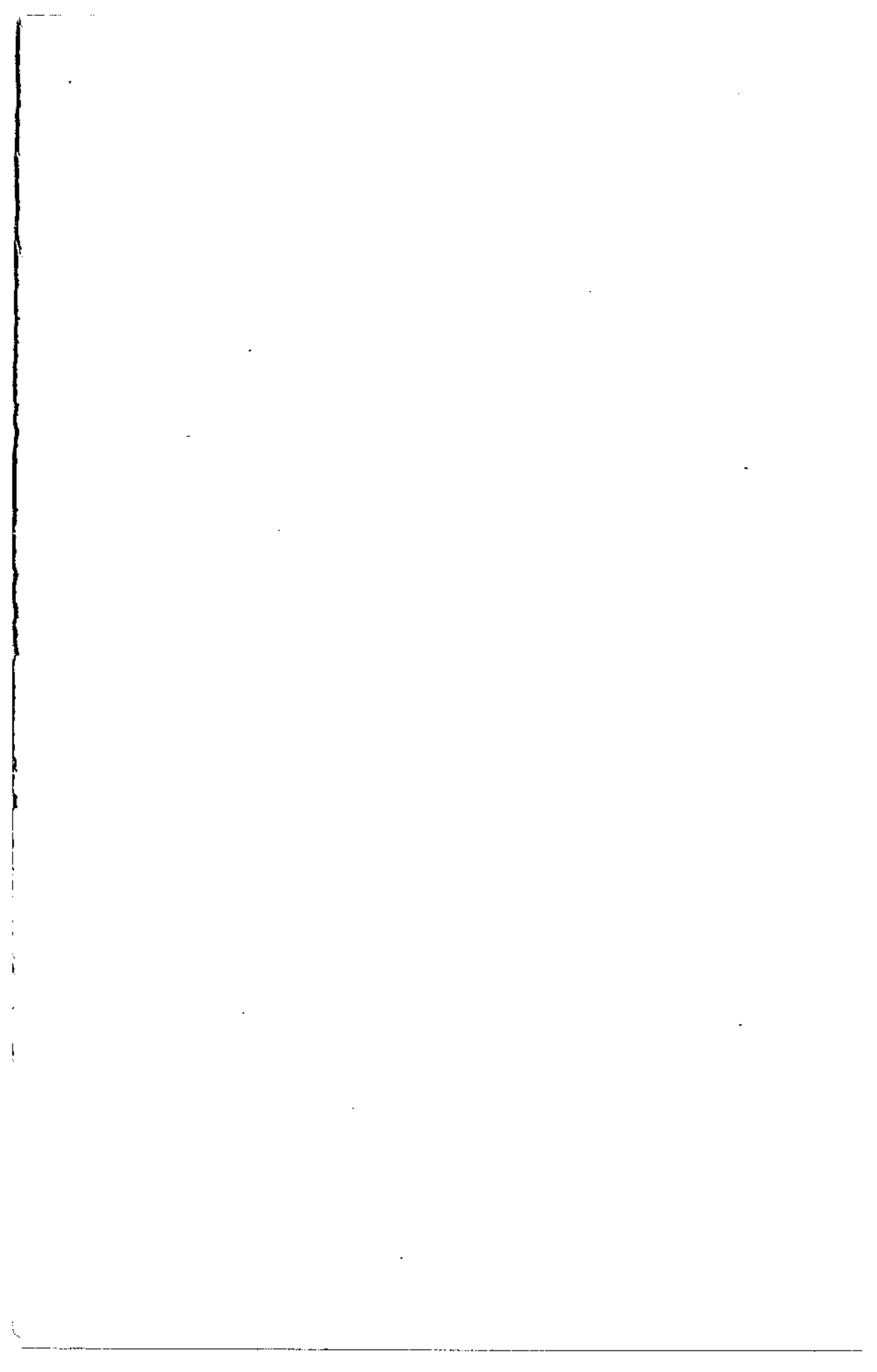
لما اختفت غازية من مجال بصره ، اقترب الغريب من صاحب الصور ، وسأله :

اهذا ما يسمونه بصندوق الفرجة ؟

— نعم .. اتحب ان تتفرج ؟ سترى عجائب القصص وغرائب الزمان .

— طيب .. دعنا نر ...

دمشق — ١٩٦٤



المدفــــع

توقفت الشاحنة بمحاذاة الرصيف ، امام البوابة تمامـاً . .
وهبط رجالها الثلاثة وألقوا نظرة حولهم ـ قال السائق :

ـ هيا ، لنسرع ، قبل أن يتجمع الاطفال .

وصعد الى صندوق السيارة ، ودفع المدفع الى حافته ، فتلقاه الرجلان الآخران.وبعد دقيقة كان المدفع مستقراً فيمدخل الحديقة ، وفوقه صندوق خشبي مستطيل. فرك السائق كفابكف ثم مسحها بخلفية بنطلونه ، قائلا لرفيقيه :

ـ طيب ، أتمنى لكما اقامة طيبة .

فابتسم احدهما ، لم يقولا شيئاً . وابتعد السائق :

ـ والان ، سلام عليكم .

كان بعض الاطفال قد تجمع على البوابة ، يرمقون سبطانة المدفع وعجلتيه بعيون مبهورة . تساءل أحدهم :

ـ أهذا مدفع ؟

فسارع آخر الى القول :

ـ نعم ، انه مدفع .

وشرع الرجلان يجران المدفع في الممر الرملي ببطء،فزحف الاطفال خلفهما . أضاف طفل ثالث معلومته منتشيا :

ـ انه مدفع العيد .

فصحح الآخر بتبجح :

ـ انه مدفع رمضان .. غدا سنصوم . وهذا الذي سيعطينا الاشارة « بم » عندما يجب أن نصوم و « بم » عندما يجوزالافطار.

ردد الاطفال باعجاب : بم بم بم ...

واذ انتهى الرجلان بالمدفع الى نقطة ملائمة من الحديقة ، توقفا ، وجففا العرق حول رقبتيهما وهمـــا يتأملان نظام الحديقة بنظرات باهتة ، لم يظهر فيهـا اي تعاطف ... كان عليهما أن يقيما ثلاثة وثلاثين يوماً،هنا ، مع هذا الشيء،ليخدماه ويسهراعلى سلامته.

وأنزلا الصندوق الخشبي من فوق المدفـع ، وأخرجا من جوفه بعض الأدوات ، وجعلا يركزان المدفع ويثبتان عجلتيه الى الارض ، بينما أحاط بهما الاطفـال وهم يراقبون المشهد ويضجون بالتعليقات ويختلفون في ذلك فيتشاحنون .

بعد ان فرغ خادما المدفع من عملهما ، جلسا يستريحان على

العشب . كان أحدهما متزوجا ووالدا ، وكان يفكر بأمرته . . ليس معقولا أن تقيم معه ها هنا . . ولكنه يود ذلك . أما الآخر فقد أحس بالنعاس . . انه مكان رطب ولا يصلح الا للنوم . قال :

- اذهب أنت الى البيت ، لتتدبر الامر مع عيالك،وتحضر لوازمك للاقامة هنا .

- أتبقى أنت ؟

فاستلقى على ظهره متمطيا :

- وماذا اذن ؟

وبعد ذهاب الرجل المتزوج ، بدقيقة أو نحوهـا ، غاص رفيقه في نوم كثيف .

قال طفل :

- نام الرجل .

قال آخر :

- أتمنى ان اكون مكانه

- أتحب ان تكون حقا ؟

- نعم ، أحب ... أحب المدفع .

- ياه ! أنا أخاف لمسه .. انه شيء مخيف .

- أنت جبان .

- جبان ؟ أنا ؟

ـ لأنك تخاف من المدفع

ـ لا .. ولكن أمي تقول انه يقتل ، يميت .

ـ أنت ابن أمك .

ـ كل واحد هو ابن امه .

ـ غلطان ، أنا لست ابن امي .

ـ كذاب .. كل واحد يجب ان تكون له أم

ـ أنت أبله ولا تفهم شيئا .

ـ أنا ؟

ـ يقول أبي ان الجبناء هم أبناء امهاتهم ، والشجعان أبناء آبائهم .

ـ وما معنى هذا ؟

ـ قلت لك .. أنت ابله ولا تفهم شيئاً .

وتقدم نحو المدفع بخطوات حذرة كيلا يوقظ الرجل . صاح أحد الاطفال :

ـ هيه ! انظروا ، سيضربه الرجل .

فقفز الى الوراء مبتعدا .

كانت الشمس قد تدنت من الافق ، وامتدت ظلال الاشجار بعيدا . وامتلأت الحديقة بالنساء والاطفال . كان القادمون يتجمهرون حول المدفع لحظات ثم يتفرقون ، ليجلس بعضهم على

المقاعد ويتلهى الآخرون بالاراجيح . كانوا خليطا متعدد الألوان من النساء والاطفال .. وأغلب النساء يتشح بسواد الملابس التقليدية القديمة ، محجباً أجسامهن السمينة الثقيلة . كن جميعاً يقضمن الفستق والقضامة ويفصصنَ البزر في شهية ، وقد أثار المدفع في أذهانهن خواطر جمة وذكريات رمضان السالف ، وتعليقات على غلاء المعيشة الذي يعانيه الناس في كل رمضان، ثم قالت واحدة من ثلاث يجلسن على مقعد قريب من المدفع :

ـ لم يبق لرمضان سحره القديم .

وتحسرت . كانت في الاربعين ، كتلة من الشحم واللحم تزن قنطاراً ، وحذت شريكتاها في المقعد حذوها ، في آن واحد وكانتا أصغر منها سنا واقل وزنا ، وكان وجهاهما مطليين بحمرة فاقعة اللون ، وعيونهما مكحلة بكحل فاحم . . . قالت احداهما :

ـ كانت الحياة نفسها أجمل .

ـ هذا الحال اليوم بسبب الكفر يا أختي .

ـ صحيح .. لقد تغير الناس ، وصار الالحاد موضة اليوم .

ـ انظري الى هؤلاء القذرات ، انهن يرتدين خرقا ويزعمن انها ثياب ... كل شيء بائن .. كل شيء .

وعندما رجع خادم المدفع الآخر من بيته ، وضع أمتعته جانباً وأيقظ رفيقه :

ـ هيا ، دعنا نهيء المدفع .

وانصرف الى اعداد البارود والحشوة . وتمطى زميله وتثاءب :

ـ حلمت أني أطير في الجو .

ـ خير ، ان شاء الله ، علامة خير .

ثم نهض الى صنبور الماء فرشق وجهه وبلل عنقه وشرب ، فأحس بانتعاش .. ووقف يحملق فيما حوله بدهشة : هناك كثير من النساء ! وعندئذ أحس بشيء يشبه الذعر ، فأقبل على صاحبه :

ـ أتلاحظ أننا الرجلان الوحيدان هنا ؟

ـ طبعاً .. انها حديقة خاصة بالنساء والاطفال .

ـ صحيح ؟ لماذا ؟

ـ البلدية رأت أنه مستحسن تخصيص حديقة على هذا النحو ، لتتيح للنساء المحافظات متعة الجلوس في الحدائق .

ـ فكرة حسنة .. أليست كذلك ؟

ـ نعم .. ربما .. ولكني افضل لزوجتي أن ترتاد أية حديقة إلا هذه .

ـ لماذا ؟

ـ لا أحمّل ذمتي شيئاً . قد تدرك السبب خلال اقامتك هذه .

كان بعض الفتيان من عابري الطريق يقفون على الأرصفة ،

حول الحديقة ، متطلعين الى الداخل من خلال شبك السور المعدني ، يتحدثون وهم يتشوفون بعيون نهمة الى الداخل . ومر قسيسان فتوقفا ينظران الى المدفع وخادميه المنهمكين في عملية الحشو .

لم يتكلما. هما أيضاً يعرفان أن رمضان يمكن أن يبدأ غدا.

ثم تابعا سيرهما الوئيد في وقار جميل . وفي المكان نفسه تلكأ فتى وسيم ، أنيق ، يرتدي بنطلوناً ضيقاً من الصوف الأسود وقميصاً من الحرير الأزرق الفاتح، ينفتح عن صدر تتدلى عليه قطعة فضية معلقة بسلسلة حول رقبته . . كان غلاماً نظيفاً مثل اميرة صغيرة، توقف هناك وراح يرقب ما يجري في الداخل . ولكن المدفع لم يثر اهتمامه بقدر ما أثاره مشهد صبيتين نضرتين تقتربان من السور حيث يقف . . كانتا في بداية البلوغ ، وكانت إحداهما سمينة ولا تكف عن الضحك . سألها :

ـ أذاك مدفع ؟

فضحكت السمينة ، وأشاحتا بوجهيها جانباً في دلع ، وقد تلاصق رأساهما . أحس الفتى برعدة في قلبه ، انتشرت في كيانه كله بصورة خاطفة ، وجعلت ساقيه رخوتين . وبعد أن تخلص من ذلك استطاع أن يقول :

ـ انه مدفع جيد .

وتكرر الشيء نفسه في الطرفين . وقال أيضاً :

ـ التجربة ستثبت أنه رائع .. ما رأيكما ؟

وفي هذه المرة ضحكتا معاً ، وتدافعتا فتعثرت السمينة وسقطت على ظهرها ، فرأى الفتى سروالها الأبيض الصغير ، من خارج السور الحديدي ، قبل أن تنفتل الفتاة على جنبها وتتمكن من النهوض ، منطلقة خلف صاحبتها التي كانت قد ابتعدت الى الداخل ، وظلت عينا الفتى تلاحقانها جاحظتين .

أمسى المدفع جاهزاً ، وبعد ذلك جلس رجلاه فوق مرجة قريبة منه ، متكئين الى شجرة واحدة ، يدخنان في صمت ، بانتظار اشارة اثبات شهر الصيام .. الشمس تشرع بالمغيب ، وثمة مراقبون الآن ، في كل مكان من العالم يرصدون الهلال . كان الرجل المتزوج ينظر الى الأشياء ، وحتى النساء ، أمامه في حياد . انه بعيد عن هذا المكان ، كان في بيته ، مع زوجه الغبية التي لاتستطيع تدبير الأمور منفردة ، وأولاده الأربعة الذين يحبون الأرصفة والغبار أكثر من حبهم البيت .. انه يحتاج اليهم ، وانهم يحتاجون اليه ، في رمضان ، في كل أمسية من رمضان ، كلما دوى المدفع ، أكثر مما يحتاجهم ويحتاجونه في أي شهر آخر . بيد أن الرجل العازب كان هنا ، حاضراً تماماً ، بكل مشاعره وغرائزه .. كان يحلم بفراش يتسع لأربع يختارهن من هـــذا الحشد الذي يستعرضه : سمراء وشقراء ، وسمينة ونحيفة . وهو يفضل طبعاً المحجبات ، انهن أقل اتعاباً ، وانظف جلداً . وأخيراً ، قال العازب :

ـ الاقامة هنا جميلة ، ولكنها مرهقة .

ثم تساءل :

ـ أتظن أنهم سيرون الهلال ، أعني اليوم .

ـ علمي علمك .

بعد هنيهة ، قال :

ـ انهم دائماً يرونه من حماه

ـ ليس دائماً .. في السنة الماضية جاءتنا الاشارة من مكة.

وتشجع ، في هذه الغفلة ، ذلك الطفل الذي يحب المدفع على الاقتراب منه . كان يقف لصقه الآن ، وبعد لأي . كان لا يريد الا لمسه . وبعد أن لمسه لم يتراجع ، ظل واقفاً ينظر اليه في نشوة.. لقد لمسه ! حسناً .. لمسه ولم يحدث شيء . كم يود أن يطلقه ! سوف يعجب الناس به .. سوف يشيرون اليه ، ويقولون : « هذا هو ! لقد أطلق المدفع ! » .. وكانت الفتيلة بارزة أمام عينيه ، بيضاء صغيرة . وخلف المدفع ، على الصندوق الخشبي رأى علبة كبريت . لم يعد من مبرر لأي تردد بعد .

كان وجه المراهقة السمينة محمراً من العافية والضحك .. وكانت الآن ترامق الفتى المسحور بعينين نديتين بالدموع ولا تكفان عن الضحك هما أيضاً .. وبعد أن ابتعدت ورفيقتها عن السور مرة اخرى ، اندفع الفتى راكضاً ، يريد الوصول الى مكان أقرب الى

مكانها ، ليفاجئهـــا ، فاصطدم بفتى آخر من نمطه تماماً ، فدفعه عنه صائحاً :

ـ ايه، كن صاحياً ، أأنت أعمى !

ـ اخرس والا حطمت فمك .

واشتبكايتعاركانبضراوة، كل منهما يلكم الآخرعلىوجهه..

ولكن انفجاراً هائلاً دوى فجأة ، فنسي كل منهما الآخر ، وتعالى صياح الأطفال ، داخل الحديقة :

ـ هيه ! أثبتوه ، أثبتوه ..

وبعد أن أفاق الرجلانمن ذهولهما هبا الى المدفع ، ولكن الطفل كان قد هرب قبل أن يتحركا، وتابع ركضه خارج الحديقة. وكان صياح الأطفال ماينفك يضج في فرحة عارمة : « أثبتوه ، أثبتوه .. » وهم ينطون ويدورون حول أنفسهم .

وهتفت امرأة وحيدة على مقعد : « يا الهي ! اذن سنصوم غداً ! ما كنت أتوقع هذا . رمضان عجيب ، يتعجل الحضور ، ثم يقعد ثلاثين يوماً بطولها ! »

وضحكت الفتاة السمينة وهي تدافع رفيقتها التي شرعت هي الاخرى في الضحك :

ـ أترين .. ماعدنا نقدر على الحضور هنا بعد اليوم .

ـ نعم ، سنكون دائماً في البيت ، بانتظار الافطار .

ـ لا أعرف لماذا خلقت البيوت .

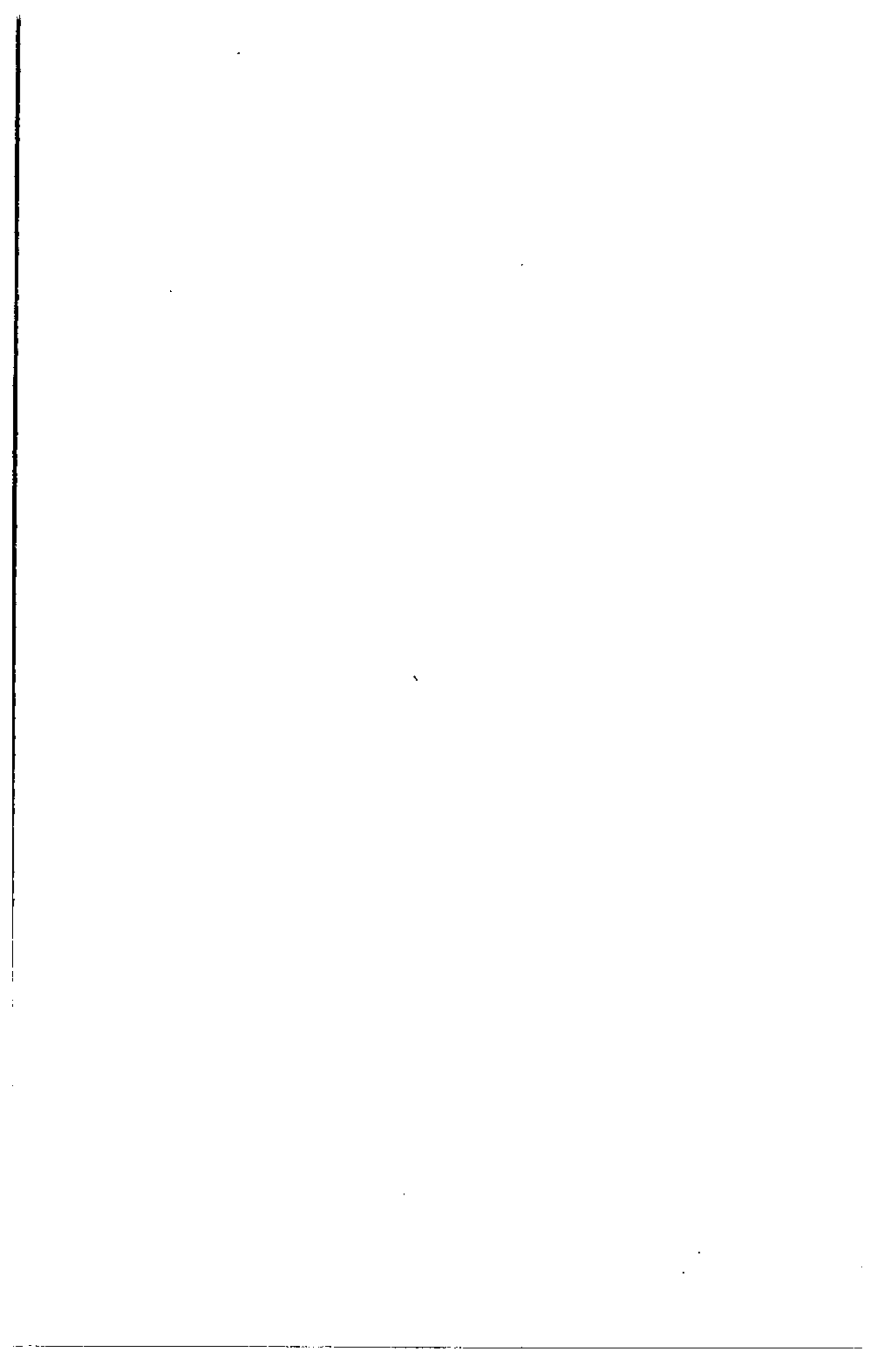
وكان الرجل المتزوج يضرب كفاً بكف وهو يردد :

ـ يا للولد اللعين ! خرب بيتنا ، ما عسانا نقول لهم ؟

ونظر الفتى الى خصمه بغيظ ، ثم لوى رأسه وبصق دم فمه على الرصيف وهو يتعجب مغمغما :

ـ اللعنة ! لماذا تقاتلنا ؟

دمشق – ١٩٦٤



منعطف إلى طريق آخر

تهيأ لكل احتمال ، وهو يعرّج على بيتها . ودون أدنى تردد قرع الجرس ، ووقف ينتظر ، ملقيا بنظرة عابرة الى باب الشقة الاخرى في الطابق ، ثم رجع ينظر الى يده المعتمدة على الجدار نظرة غامضة .

انفتح الباب عن امرأة في منتصف العمر ،استقبلته بابتسامة متحفظة ، مندهشة ، وبكلمة ترحيب ينطوي جرسها على عتب . لم يتكلم ، وقف هادئا ، يحدق اليهـا بعينين رخوتين لم يختف منها ذلك الغموض .. بينما اتخذت هي وضع صبية مراهقة ، مستندة بكفيها الى مصراع الباب . وبوعي يفتقر الى الحماسة التي كانت متوقعة من رجل قادته حمى الشهوة الى هذا الباب ، لاحظ انفتاح ردائها المنزلي عن ثوب النوم الحريري الاحمر الذي يشف عما تحته شفوفا ضبابيا ، لضعف في النور ، وكان خضاب شعرها الاسود

كالحا يحتاج الى تجديد ، ووجهها عاريا عن تلك الزينة المبالغ فيها فظهر غريبا عليه ، خالياً من أية لمحة محببة .

غنجت بصوت يهدل بلين يقارب الميوعة :

ـ ألا نستحق تحية ، ولا أية كلمة بعد هذا الغياب ؟

يالهذه الدعاوة الانثوية ! لماذا لم تدرك حتى الآن انه يكره هذا الاسلوب في التغطية واللف حول الاشياء ؟ انه يكره هذا الاسلوب ويسبب له نفورا وحنقا . قال لها ، لمجرد الكلام :

ـ انها الظروف كما تعلمين .

وفي اللحظة نفسها أدرك أنه يدخل اليها ويشارك في العملية ، وخطر له أن هذه العملية من ناحيته خسيسة ، وينبغي أن يخجل من نفسه . فابتسم مداريا . قالت وهي تغمز بعينها :

ـ نعم ، الظروف . دائما هي الظروف .

وانتظرت أن يتكلم . ثم قالت :

ـ العزوبة هي مطلبك ، وأنت الآن تنعم بها ولاشك ، بعدما سافرت زوجتك .

ـ ليس تماما .

وقد فكر : كم تستطيع المرأة أن تكون خبيثة ومراوغة !

كأنها تقول : غاب القط فالعب يافأر . إلا اذا كان هدفها معرفة مكانتها هي من هذا المطلب الذي تلمح اليه . واذ يئست من كلمة أخرى اضافية ، شرعت تستجره :

ـ لماذا « ليس تماما » ؟ أليست هذه فرصتك ؟ أم أن الوحدة أثقلت عليك بعد رحيلها ؟ أنت من النوع الذي لا يستغني عن المرأة . لافائدة من الخداع ، أنا لا أصدق أن ما من امرأة أخرى هناك . أأنا مخطئة ؟

ابتسم قائلا :

ـ أنت تعرفين الجواب .

وتعجب من قدرتها على المخاتلة بهذه الصورة ، بعد كل ما كان . ليتها تعلم أن هذا لايشجعه ولا يثير فيه الاندفاع الذي ترجوه . قالت مشاكسة :

ـ أنتى لي هذه المعرفة ،

وأراد انهاء هذه الطريقة في المناورة ، فقال مباشرة ، وبخشونة تقريبا :

ـ انني أجلس في البيت وحيدا ، فاتحا بابه كل الوقت ، بانتظارك . وبعد هذه الايام من الانتظار جئت لأتأكد من أنك لم تسافري أنت الاخرى .

أبرقت عيناها بفرحة متهافتة ، وارتبك جسدها الذي يضج بالحرارة والعنفوان رغم اقترابه من خريف الكهولة ، حتى ظنها ستلقي بنفسها فوق صدره . غير أنها قالت :

ـ سيلاحظ الجيران دخولي وخروجي . هم يعرفون أنك وحدك في البيت .

فنظر اليها بدهشة رجل ساذج . كم مرة جاءت اليه في غياب زوجه ، حين لم تكن في نفسه هذه النية التي تضج بها حناياه الآن وتسبب له رعافا داخلياً ! وحين أوشك أن يقول لها ذلك أوقفته فكرة : اذا كانت تحاول التملص فلن أجادلها ، يجب أن تكون راغبة . ثم أدركه شيء يشبه البرد ، داخل معدته .. قد يكون بدايات قرف . قال بهدوء يكذبه صوته المتخاذل :

ـ حسنا . أنت محقة .

واستدار هابطا الدرج الى الشارع ، فأحس بدفء نقي هفت به أشعة الشمس اللطيفة ، وجعل يضحك وهو لايعرف بالضبط ان كانت هذه النتيجة تستحق رد فعل آخر غير الضحك . واتجه الى بيته ، في الجادة الاخرى ، مئة خطوة لم يع أنه مشاها واجتاز بها ذلك المنعطف القوسي الذي تبدأ به الجادتان . ولانه لم يترك مكتبه الا « لشرب القهوة » ، حجتها الدائمة للالتقاء به أيام كانت الزوجة لاتحس بمياه السيل وهي تحتث التربة تحت بيتها، فانه دخل

المطبخ مباشرة ، وشرع يصنع القهوة ، لشخص واحد بالطبع ، بذلك الشعور نفسه من البرودة الذهنية الذي يتولد عن خيبة أليفة، واعتيادية كصديق ثقيل الظل ، بليد الاحساس ، يفرض حضوره عليك . ومن البداهة أن ذلك لم يخفف وطء الحيرة والتساؤل . أهي تعني ما قالته حقا ؟ أم هي مماطلة نسائية مما يفترضه الدلال عادة ؟ أكان يجب أن يقوم بعمل ايجابي حاسم ؟ اذ أن المفروض دائما أن يقوم الرجل بدور المغتصب حتى في مثل هذه الحالة ، حتى في حالة كونه الفريسة وكونها الصياد ، فهذه « عادة » وأنت لابد لك من الخضوع لها . اذن ... ؟

سبعة أيام ! نعم ، سبعة أيام مضت على سفر الزوجة ! وكان يعوّل على هذه الأيام مثلما يعوّل على النقاهة جريحٌ خرج من المستشفى بعد مدة طويلة من العيش وسط ذلك الخضم الابيض الواسع من الطهارة الجبرية والنقاء المخنوق ، من الأنين والحشرجة والصرخات والاحتضار . ونصاعةُ البياض صبرٌ أبله ، مسالم وحيي ، يتودد الى قهرك وهو يصافحك من فوق الجدران والابواب والنوافذ والأردية والأغطية والسرر . كل شيء يحاكي الثلج ، في صلابته الهشة وفي جديته الرقيعه الباردة ، تفوح منه رائحة الادوية والمطهرات وتذكرك بشروط الحياة القاسية ، مثلما ترسم لك أيضاً الطريق الى المقبرة باستمرار .

وعندما حمل فنجان القهوة الى المائدة وجلس تجاهه مستمتعاً بنكهة رائحته ، تنبه الى أن وضعه لايزال غير طبيعي ، ولا يزال مضحكاً . ماهذه المسخرة؟ انه مابرح يحمل قناع الممثل حتى في خواطره وحديثه الى نفسه ، رغم أنه أراد لأيام الاجازة هذه - مدة غياب الزوجة التي قد تطول شهراً - أراد لها أن تعفيه من هذا الدور ، أن تطهره حقاً وتتيح له العودة الى السوية والارادة . هاهو ، حتى من خلال تفكيره ، يلجأ الى التورية والالفاظ العامة الفضفاضة التي يمكن أن تعني هذا الشيء كما تعني ذاك ، و ... نعم ، انني غارق في الزيف لأزال . أي مستشفى وأي نقاهة ؟

حاول الانطلاق من هذا الاسار . الا انه ألفى نفسه يعود الى التفكير بالمستشفى من جديد ، ولكن بصورة أقرب إلى الواقع ، وان اختارها صورة كلاسيكية لاعتقاده بأن الأصالة تقتضي هذا . حسناً ...

لقد كان زواجاً فاشلاً . أهناك تعبير آخر ؟

وبعد سنة أو سنتين شرع اليأس القديم يعود اليه . . اليأس من الألفة والتكيف . لقد بنى على زواجه بهذه السيدة بناء وهمياً . لم يدرك هذا الا بعد فوات الأوان ، بعد أن رأى البناء وهماً . ولم تحاول الزوجة وعي هذه الحقيقة ، كما لم تحاول الكشف عن دوافع هذا الرجل وأساس هذه الدوافع اليها ثم الى الزواج بها .

بدلاً من بذل مجهود ما في هذا الاتجاه هيأت له كل الاسباب الصالحة ليكفر بها وبالزواج .. بل أكثر .. بالحب اطلاقاً . وهو — كما لاح جلياً بعد سنة أو سنتين — حين انجذب اليها بقوة وأحبها ، ولاقى منها قبولاً مماثلاً ، لم يدرك عندئذ أنه قبول غريزي ، لادافع له سوى هذا الاحساس بالمحافظة على البقاء بكنف رجل يريدها . غريزة المرأة الجاهلية يمكن القول ، والمرأة على كل حال يجب أن تتزوج ويكون لها بيت زوجي وأطفال . ولهذا فهي لم تمنح نفسها لحبه كما أراد ووفق فهمه الخاص للحب والمنح . وعندما بدأ يضيق بها ويعاني الندم ، قدر مايعاني الضجر ، أحس بأنها تبتعد عنه حتى في اللحظات الصميمية ، حيث يكون العمر أكثر نداوة وتأكداً وحماسة ، وحيث يكون التلاصق سلاماً خالصاً .

رجع الى تعاسته القديمة . ولأنه بطبعه ذو حساسية سوداوية ، كما ينبغي الاعتراف ، فان هذه التعاسة قد رجعت قاتلة ، واتخذت أفكاره أسلوباً فاجعاً في مسارها ، حتى أن هلوسة خفية نشأت تنز في داخله يأساً كاملاً ، مستمداً ، أغلب الظن ، ليس من فشله هذا ، وانما من فشل عام في تقبل الاشياء والايمان بصحتها ، جاء هذا الفشل تكريساً له ، بعد أن ظن في الحب الحقيقة الوحيدة التي يمكن الركون اليها لتمنحه خلاصه .

لقد تبادر اليه أحياناً توق ساغب الى تجربة أخرى ، الا أنه لم يتمكن من نفسه وظل طفيلياً . صحيح ان عذابه شيء غير مبرر وسخيف بقدر ماهو عذاب وحشي . هذا صحيح . ولكنه تحمله في سبيل ان يبدع لنفسه قيمة مثالية واحدة على الأقل يتعلق بها وتخفف عنه حدة هجمات اليأس العنيفة ، ولتعزيه أيضاً ... ان يكون شهيداً ، بمعنى من المعاني . قد يكون هذا مضحكاً . ولكن هذا مافعله ، فكان لابد من أن يكون الاخلاص للزوجة والاطفال شيمة تنبض في حياته كالقلب ، مثلما كان الصليب في حياة المسيح الخالدة .

بيد أن شيئاً طارئاً تسلل الى هذه القناعة ، وجعل يقاوم خطته بدأب وبسرية . فقد فوجىء بهذه المرأة — صديقة زوجته الصدوق — تحمل اليه امكانية عطاء وامكانية فهم : ان تعطيه مايريد من المرأة ، وان تفهمه فهماً يساعد في معالجة المرارة علاجاً — على الاقل — فيه شفاء نسبي وموقت . وبالرغم من معرفته اياها خلال أشهر عديدة من قبل ، بدت له كما لو أنه يراها لأول مرة . كانت لحظة التحول هذه في نهاية احدى زياراتها الليلية ، تحول لايدري ان كانت له — من طرفها — مقدمات لم ينتبه اليها ، فهو لم يكد يلاحظ هذه المرأة ملاحظة خاصة وعلى نحو خاص . لم تكن أكثر من صديقة من صديقات الزوجة ، بل الأحرى انه وقف منها

موقفاً منكراً ، لما في سلوكها من تكلف ظاهر ومبالغ فيه ، يثير الرثاء والسخط والسخرية .

أما في تلك اللحظة .. فقد بدأ احساسه بها يتغير وهو يرى عينيها تمعنان فيه النظر ، وتطيلان الامعان ، ورأى في هذه النظرة ، في عينيها ، بُعداً آخر .. مدّ طريق حاول عبثاً مرافقة زوجته عليه .. طريق من التبادل العميق للعزاء ، للقوة ، وحتى للدموع ان كان ثمة حاجة اليها ، التبادل الخالص الذي لايستند الى تعاقد رسمي يحضره شهود ، ويوثق بشروط وتعهدات تنتهي الى نوع من المسؤولية عظيم العبء وكريه الطعم. باختصار، كانت لحظة يمكن وصفها بولادة جديدة .

ولم تتوقف تلك اللحظة عند حدوديتها كوحدة زمنية ، فقد امتدت واستهلكت كل زيارة من زياراتها اليومية الدائبة ، وعرشت في سماء بيته ظلالا وأنواراً تهمي بها عيناها وهما تُنشدان أنشودة الحب حيناً ، او يضطرب فيها ايقاع ملحمي يصخب به جسدها المكتنز حيناً آخر . فهل يدهش بعد ؟ ايدهش وهو يحس بأنها تسيطر عليه ، يوماً بعد يوم ، يفكر بها ، ويشتهيها اشتهاءيؤرقه ولايفارقه حتى انه يختلط بالواجب الزوجي ! لا . لم يعد يدهش . ولكنه سرعان ما كان يحس لابالحماقة فحسب ولكن بالقرف ايضاً . بالقرف من وضع يحقّر كل شيء .. بدءاً من نفســـه الى المرأة

الزوجة الى المرأة العشيقة الى كل هذه السخافات التي تجري في العالم .

والسؤال يلح عليه : أيتخلى عن صليب الاخلاص، ويكتفي بالاخلاص لنفسه وحدها ؟ وكذلك فان المرأة لم تكف عن الالحاح وان ظل الحاحاً غير صريح الصراحة المكشوفة .

أخافه الاحتمال وراح يدافعه بعيداً ، وهي صابرة .

ولكنه استسلم في النهاية . أما كيف فمثلما تبدأ كل الاشياء الخطيرة ، مثلما بدأ ينجذب اليها مثلا . فقد وجد نفسه، ذات ليلة، مسوقاً الى الاستسلام للتفكير ، لابصورة جادة ، بل بدافع من نوبة ضجر ويأس حادة شنت عليه احدى هجماتها المعتادة وافترست النوم منه ، فقام من فراشه الى السيكارة ، جلس يدخنها على أريكة مريحة ، وسط عتمة البيت . تأمل وضعه بكل مافيه من زيف ومن جبن ، وتعاسته تضغط عليه مثل كابوس يوشك على خنقه ، وانتهى الى ان يرى الاشياء غير محتملة وأغلقت عليه جميع السبل . وهنا قفزت المرأة من قلب الاشياء المعتمة ووقفت أمامه ، بعينيها النديتين وشوقها المجند بكل التمنيات : شبيك لبيك - نعم، عفريت الخرافات - هيا . كف عن التردد .

- ماالذي تستطيعينه من أجلي أيتها المرأة ؟

- جربني . أليس من الجائز أن اقدم لك ماعجزت عنه

تلك النائمة مطمئنة تاركة اياك وحيداً تعاني وحشية تعاستك؟ أليس جائزاً أن تجد عندي ماتفتقده فيها ؟

ـ اتعرفين ماالذي أفتقده فيها ؟

ـ أعرف . أنا اعرفك واعرفها كما أعرف نفسي . أكان لي أي شاغل طوال هذه الشهور الا مراقبتك ومعرفتك .

ـ ان مظهرك جميعاً يدل على سخف وفراغ كاملين.

ـ من أدراك باحوال الناس حتى تحكم من الظاهر ؟ هل انت متأكد من أن مظهري ليس اكثر من نتيجة طبيعية لما أعانيه من السأم ؟ من فقدان القيمة المعوضة عن فراغ الاشياء ؟

ـ لا . أنا عاجز عن التأكد من أي شيء .

ـ حسناً ، دعنا نترافق . أنا مثلك صدقني . أنت قلت يوماً انك انتهيت الى الايمان بالحب كحقيقة أخيرة تصلح للعزاء . اليك حبي اذن .. واليك هذا الجسد الذي لايمكنك الاستهانة به .. انظر اليه . إنه دواء ناجع.. أن نجدد حيويتنا.. هذا هو مايلزمنا.

اجتاحته دعوتها مثل الحمى : هيا اذن ، جربني . حتى ان جبينه توهج توهجاً كثيفاً بالحرارة ، فهب عن اريكته وذهب الى النافذة يتنسم منها نسمات الفجر الباردة لتنعش روحه المحاصرة . أحس بسقوط أرعبه ، فاغمض عينيه ، وغرق في بحران من الشعور بالشقاء ، وعبثاً حاول التفكير بمنقذ آخر .. فكل شيء لاقيمة له

ولايتمتع بالصحة .. جميع القيم خداع صنعه الناس ليعيشوا به ، ليعطوا للحياة مبررات وغايات عندما أدركوا أنها تفتقر الى المبرر والغاية . حسناً ، هل انتهى الحب أيضاً الى ان يكون وهما وخداعاً؟

صار المبرر دسماً الآن للتحامل على الزوجة النائمة . وجد نفسه يفكر بتلقائية مباشرة ، مثل نتيجة حتمية لمعادلة منطقية : انه لايعرف على وجه الدقة مدى اخلاص هذه الزوجة له . لاأعرف إن كانت افكار مماثلة لافكاري ، ودوافع مماثلة واشتياقات مماثلةقد هدهدتها أو قادتها الى طريق مماثلة أيضاً . ولم لا ؟ اذا تماثلت حالتان في الطبيعة فلا بد من سيرهما عندئذ باتجاه واحد ، اعني الى نهاية مماثلة . أهو مخطىء في هذه النظرة ؟ فليحاول .. ولكن لا .. ما الفائدة من محاولة الكشف ؟ انه منفصل عنها ، فماذا يهمه في النهاية ؟ ومع ذلك ظلت افكاره تطوف هذا الطواف المريب . كم هي وضيعة اكتشافات الدنيا كلها - بما فيها أحوال الفضاء الخارجي - الى جانب اكتشاف واحد .. اكتشاف أحدهم زيف كل شيء ، عندما يتحقق بطريقة ما ، انه ، مثلاً ، وزوجته يعانقان في الوقت نفسه امرأة ورجلاً آخرين حينما يكونان معتنقين على فراش واحد ، متلاحمين ، ويهمس كل منهما للآخر بأخصّ كلمات الحب وأعذبها ، ويتبادلان قبلات ذات حمم وصخب ، الى آخر العملية !

هذه المرأة التي تلاحقني وتدأب على ملاحقتي بهذا الالحاح ، أليست هي زوجة تحيا مع زوجها ، تعنى به ويعني بها ، وتغار عليه – كما أعرف جيداً – وتنام معه بصورة مقبولة ؟لماذالا تكون زوجتي ، هي الاخرى ، كذلك ؟ كيف اعرف ؟ انها البداهة ، أليست البداهة كافية ؟

وارتد عن النافذة دون ان يتلقى أية مساعدة من برد الفجر . وكان طيف المرأة ينتظر ملء البيت ، وقد بدا الآن فارغ الصبر : هيا اذن ، حدد موقفك . فاجابها فوراً : حسناً الى الغد . غداً لن تخرجي من هنا إلا وبيننا موعد لقـــاء . لقاء كامل .

كان موقفاً باتا ، بدليل انه نام وهو مستسلم له » لطيفها تماماً .

غير أن المرأة انقطعت عن زياراتها . لم يجرؤعلى الاستفسار من الزوجة التي لم تكن غافلة عن « هذه السفالة » حسب تعبيرها ، وكانت بعد أيام من المتاعب ، وتجاه دفاعه المتقن بمهارة فائقة ، قد اقتنعت بأن المسألة وحيدة الطرف ، من جانب المرأة الصديقة وحدها . اما هو .. فصادق ، أنا أعرفه ، ان مزاجه ليس من النوع الذي يسوغ مثل هذه المرأة المبهرجة . ولحسن حظه – ربما – كانت قناعتها على هذه الصورة قريبة من الكمال . وهكذا عزمت أخيراً

على السفر ، بعد تردد طويل ، وتركت البيت له متحرراً من رقابتها ، فترك الباب مفتوحاً لصديقتها .

ـ سيلاحظ الجيران دخولي وخروجي . هم يعرفون انك وحدك في البيت .

أتراها قد عنت هذا ؟ أذريعة للتملص من وعد أغدقته ثم ندمت ، ام هو اعتذار حقاً ؟ النتيجة في الحالتين : صفر .

كان فنجال القهوة أمامه قد انتصف وبرد .

لابأس ، دعك تبرد انت أيضاً .

ولكن .. استقبالها لي لم يظهر فيه أي تراجع ، أليس كذلك ؟ وتلك النظرة في عينيها .. فليظل هذا الباب مفتوحاً .

وامتدت يده الى فنجال القهوة ، وقبل وصولها اليه سمع وقع حذاء نسائي يجتاز الباب ، ورآها تبتسم وهي تتقدم ، دون أن تغلق الباب خلفها . أحس برخاوة تنتاب جسمه كله ، وساوره شعور بأن أعضاءه تنحل وتتفسخ ، فقام بصعوبة وابتسم لها ، دون حركة اضافية أو كلمة . أما هي فهتفت بغنجها المعهود :

ـ مررت لاشرب القهوة معك ؛ وها انت تشربها وحدك .

واختارت مكانا للوقوف في الجهة الاخرى من المائدة .

ـ اجلسي ؛ ساعد لك فنجالاً .

ـ لا ، ليس لدي وقت ؛ لاأستطيع المكوث .

وأراد أن يسألها لماذا جاءت اذن ، بعد ان اعتذرت قبل ربع ساعة . قال لها :

ـ هيا اجلسي ؛ لن يستغرق اعداده اكثر من دقيقة .

ـ لا ، ارجوك . لابأس . ليس له لزوم الآن .

وكما لو أن أحدا دفعه بكل ثقله سقط فوق الكرسي ، وأحس بالاضافة ان البلاط تحت قدميه تحول الى رمال متحركة . كل شيء مزعزع ، وغير ثابت . انها مع ذلك غير بعيدة عنه ، انها حركة يسيرة هذه التي ينبغي القيام بها ليمسك بيدها . بدلا منها بادرته بلادة لزجة هي حتى هذه اللحظة ليست فتورا وليست أي شيء يدل على انقراض عنفوان الرغبة التي أحيتها هذه المرأة . سألها :

ـ متى اذن ؟

فتمايلت ، وعيناها تبرقان كسماء شتوية تتذلل لها تربة الارض ، ثم هدلت :

ـ أراك متعجلا الآن . ماالذي حدث لك أخيراً ؟

نعم ، ياسيدتي . انه سؤال جدير بأن يطرح . لماذا ؟ ماالذي حدث لي ؟ ان الاجابة تقتضي وقتاً طويلا من البحث والتفسير . ولكن ، أحقاً تنتظرين مني الجواب ؟ قال متململاً :

- أنت على كل حال لاتجهلين أم سبب لتباطئي ذاك . لقد لاحظت أنت بنفسك شكها ورقابتها الصارمة . هذه هي الفرصة .

- نعم ، ولكن ، ماذا يقول الناس ؟

- وتقيأ بعنف :

- أي أناس ياسيدة ؟

- يالهي ! ماالداعي الى هذا الصراخ ؟

ثم قالت :

- الجيران ، جيرانكم ، يعرفون كما قلت لك . وأنا أعرف انهم يراقبون . ألا تدرك هذا ؟

وإذ لاحظت انطواءه ورجفة شفتيه ، قالت :

- الناس يخلقون من حبة القمح الجافة حقلاً بكامله . وهم لايرحمون .

وكان لابد من بلوغ إزدرائه لها نهايته القصوى ان لم يضع حداً لنموه . غمغم :

- طز !

قالت بلهجة ذليلة :

- أنت لايهمك ، هذا صحيح . أنت لاتبالي بالناس . لاتبالي حتى بمن يهتمون بك . أما أنا . . أما نحن فاننا لانستطيع اغفال أمرهم فضلاً عن اسقاطه .

ـ حسناً . اسقطي أنت إذن .

ـ ماالذي تعنيه ؟

انها تستنكر . أيخجلها حقاً مافهمته هي من كلمةالسقوط . انه لم يقصد الا المعنى نفسه الذي قالته عن الناس . سقوط ثمرة من غصن ، أو شرفة عن جدار ، أو فارس عن جواده . ولكنه لم يعن بشرح او تفسير يقدمه لها . فاجأه هدوء غرابي . حلقة مفرغة . أهكذا نستمر ؟ أهكذا أستمر ؟ لماذا لانرجع زواحف وأسماكا ؟ أكان ضرورياً أن نرقى الى الدرجة التي نفقد فوقها كل توازن ، ثم لايجد الواحد منا سنداً ؟ ولماذا ؟ آه ! نعم ، الناس ! الناس !

ـ اسمعي . لن أحاول اقناعك ، فقد تكون المحاولة من هذا القبيل نوعاً من الغرور ، قد أكون أنا نفسي غير مقتنع ، غير متأكد . غير ان الأمر يبدو لي هكذا .. ان لم نتحرر من الناس ، كيف يمكننا التحرر من التعاسة واليأس ؟ منذ بضعة شهور وأنت تغريني بهذا المشروع .. أن نتعاون معاً على التحرر من التعاسة واليأس .. والآن ؟ ماالذي أراه وأسمعه ؟ ماهو جوابك وأنا أمد يدي إليك ؟ الناس ! أليس هو جوابك ؟ وإذن ؟ أنت لاتملكين مساعدتي .

ـ يبدو لي انك تبالغ في تصوير كل شيء . يجب ان تتأكد من انني .. معجبة بك ...

واستشف مرارة في لهجتها وحنقا ، تؤيدهما حركة عفوية من يديها الاثنتين وهما تضربان المائدة بإيقاع تضبط به كل عبارة ، متحاشية النظر الى عينيه الغاضبتين ...

- ... وأرغب في صداقتك .. أرغب في الاجتماع بك دائماً ، لنتحدث بألفة وحرية.

وتوقفت حركة يديهـا ، وشخصت اليه بنظرة محترقة . ثم دمرت كل ماسبق من كلمات الأغنية إذ قالت :

- ثق باننا لن نعدم فرصة مناسبة .

فهتف :

- يا الهي !

ونهض يريد أن يدفعها الى الخارج .. وفي هذه الأثناء رأى عينيها وهما فارغتان من كل شيء تقريباً .. انهما مجرد أداة بصرية . تجمدت حركته ، وتوقف ينظر اليها .. عندئذ ، مثلما ظهرت له في البداية فجــأة ، اختفت . اختفت المرأة كلها ، مضت ، وخلفت مكانها هيكلاً انسانياً خاوياً ، ينتصب تجاهــه وهو يبتسم إبتسامة بلهاء ، تشبه إبتسامة في صورة تذكارية قديمـة ، رديئة التصوير . أكان ذلك كله حلماً من أحلامه ، أم تخيلاً من تخيلاته الكثيرة التي استهلكت عمره ؟

فرصة مناسبة !

قال :

ـ تقصدين . عندما يفنى جميع الناس ، ونحن بينهم طبعاً .

ـ لا ، طبعاً ، لا . إنما .. أعني . فرصة أخرى حقاً .

تلفظت بذلك وهي تغادره . فظل واقفاً ينظر الى الباب المفتوح في حيـــاد كامل ، تولد من القهر والسخط المتجاوزين كل حد .

نعم ! مـــاتت الكلمات ، وظلت الثرثرة ثرثرة كانت غزيرة وطويلة المدى ، نبضت بملامح وسمات كلمات حقيقية ، ورائعة مثل رايات الانتصار وشعارات العقائد و ... كلمات لها مخايل الدم والعصب والشعور ، حتى أوحت بأنهـــا حركات القلب البشري نفسه . ولكنها . ها هي .. في النهاية .. لم تكن سوى ثرثرة .

ضحكة أخرى ، من السلسلة . ليست لك ، وإنما هي عليك . قلت لنفسي ، منذ البداية : ما الفائدة ؟

وحمل فنجال القهوة الى المطبخ . لم يكن فيه سوى الحثالة السميكة ، بعد أن شرباه مناصفة . وألقى به في حوض المجلى فاذا به ينكسر الى قسمين . تمتم : الى جهنم !

وبارح البيت يريد العودة الى مكتبه . كان بيتها على طريقه الذي يسلكه الى المكتب . ها هو المنعطف يدور به الى الجادة

الأخرى ، ويمشي على الرصيف ، ويجتاز بيتها دون أن يتنبه اليه ، فهو غارق في إحساسه الفاجع ، ولكنه هادىء ، وبعيد عنها وعن بيتها ، بل ربما انه لم يعرفها أبداً ، ربما هي لم توجد . ولم يوجد لها بيت هنا أو هناك ، في أي مكان محدد . من يجزم ؟

دمشق – ١٩٦٧

الفهرس

للمؤلف :

« الرجل الأثري »

مجموعة قصصية ـ إصدار اتحاد الكتاب العرب

١٩٧١/٥/٢٠٠٠

الساعة التاسعة عشرة بالتوقيت الصيفي لمدينة دمشق . هي ساعة شارع «الصالحية» . فمع تجددها اليومي المتجدد الى مالا نهاية ، يتحول الشارع الى شيء نابض بآلاف القلوب ... نهر من الأرجل مختلفة الحجوم ومعه عيون متعددة الألوان ، ووجوه مرحة ومكتئبة . وإذا كانت ميزة النهر العادي وحدة الماء فيه وتماسكه ، فهذا على النقيض ، ميزته تشتت العناصر وتنافرها ، لأن كل عنصر قلباً مستقلا .

عند هذه القلوب ، وبهذا الاسلوب المنساب كالماء ، الشفاف كنهار آق ، يكتب عبد العزيز هلال قصصه هذه التي تقدمها وزارة الثقافة الى القراء . انه يتناول مادته من البيئة المحلية ، ويعيدها اليها ، في صياغة فنية ، تحكي قصص الذين يتقحمون زحام الحياة في سبيل أن يكون لهم عمل وبيت وزوج واسرة وأفراح كما للآخرين .

سعر النسخة

١٧٥ ق.س.ل.

مطبعة وزارة الثقافة

دمشق ١٩٧١